حلم تائـه

(رواية)

عبدالله شكربة

الكتاب: حلم تائه(رواية)

عبدالله شكرية

رقم الايداع القانوني: 2018mo4970

ردمك: 0-612- 36- 9920- 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبع وتصميم مطبعة أنفو برانت 12 شارع القادسية الليدو فاس.

الهاتف: 0535641726/ 0661201641

البريد الالكتروني: infoprintfes@gmail.com

انتظار

إنه يوم الثلاثاء الكل ينتظر هذا اليوم الذي يوافق 21 من شهر يونيو، تاريخ الإعلان عن نتائج البكالوريا. ينتظر التلاميذ الذين اجتازوا هذا الامتحان بفارغ الصبر، وحالة القلق والخوف من الفشل هي الحالة المصاحبة لهم طيلة المدة الفاصلة بين تاريخ إجراء الامتحان وتاريخ الإعلان عن النتائج.

إنها الساعة الثالثة زوالا. لم يعلنوا بعد عن النتيجة. كان التلاميذ وأهاليهم وأقاربهم في الثانوية قرب سبورة الإعلانات.

حالة القلق والخوف بادية على وجوههم. يكفي أن تلقي نظرة خفيفة على ملامحهم فتلاحظ وجوه كئيبة، تراهم لا يثبتون على مكان واحد، وبين الفينة والأخرى تسمع أحدهم يقول لزميله لقد تأخروا هذه السنة، أتمنى أن يكون تأخيرهم فيه خير. فيرد كل من سمعه بآمين.

حميد لم يقو على الانتظار، كان يتحرك كثيرا، تارة يذهب إلى الإدارة ليستطلع الأخبار ثم يعود إلى حيث يجتمع التلاميذ والأهل والأحباب، وتارة أخرى يذهب إلى المرحاض فيغسل وجهه وينشف يديه على رأسه ثم يعود. لم يكن يتكلم مع أحد، لكنه كان غارقا في التخمين والتفكير في النتيجة. كانت أمامه ثلاثة احتمالات، إما أن ينجح ويكافأ على المجهود ويحظى بالتهنئة

وينفرج عنه الهم. أو يرسب ويكرر السنة. أو يبقى معلقا فلا هو مع الناجحين ولا هو مع الراسبين.

الخوف من الفشل والرسوب كاد يخنقه. عندما يشتد التفكير فيما سيقع لو فشل يحس بأن روحه ستنقلع من ثنايا جسده. يضيق صدره كثيرا، يتنفس بصعوبة؛ كأنه جندي مشارك في حرب ضارية يكون العدو محيط به من كل جانب، وهو يختبئ ويدعو الله ألا يراه أحدا فينجو بجلده سالما.

فبينما هو كذلك، إذ طلع رجل من الإدارة يحمل رزمة من الأوراق هي في الأرجح نتائج البكالوريا. وبالفعل كانت كذلك، فقد أخذ الرجل في تعليق الأوراق في سبورة الإعلانات التي هي عبارة عن زجاج نوافذ الإدارة المحفوفة بشبابيك من الحديد. التف الجميع حول السبورة. من كان جالسا وقف، ومن كان يتكلم توقف عن الكلام. وجوه شاحبة خائفة مترقبة. نبضات القلب مرتفعة، أعين حادة مركزة نظرها في سبورة الإعلانات.

بعد برهة قليلة أطلق العنان للزغاريد والدموع؛ دموع الفرح والحزن في نفس الوقت، الفرح بالنجاح والحزن على الرسوب.

بدأت التهاني تتعالى، والبكاء أيضا كان يتعالى. إنه إحساس غريب ومتناقض، أشخاص يفرحون وآخرون يحزنون. هذه هي الدنيا تبتسم للبعض وتكشر في الآخر. إنها حياة متناقضة متصارعة يحكمها قانون السلب والإيجاب، طبقا لسنة التداول. من أقبلت عليه الدنيا أغرقته في ملاهيها فتأتيه

من كل فج؛ عن يمينه وعن شماله، من تحته ومن فوقه، من أمامه ومن خلفه. ومن أدبرت عليه فلا حيلة له في توفيرها إلا أن يتغمده الله برحمته. هذه هي الدنيا خلقت هكذا. شخص يحيا وآخر يموت، حاكم ومحكوم، غني وفقير، حزين وسعيد، ذكر وأنثى، جنة ونار؟

لم يكن حميد قد عرف مصيره بعد، أنجاح أم رسوب؟؟؟ كان يتزاحم مع الجماهير الملتفة حول سبورة الإعلانات. لقد بلغت أنفاسه الحناجر وظن بنفسه الظنون. لم يدم الأمر طويلا على هذا الحال حتى شاهد اسمه ضمن الناجحين، فاجأته النتيجة، ليس لأنه لم يكن يتوقعها ولكن لصعوبة الموقف، وكأنه يوم الحساب.

بدأت الطمأنينة ونشوة النجاح تجد طريقها رويدا إلى نفسه. هنأه أحد زملائه وبارك له النجاح. ابتعد قليلا عن السبورة، ثم جلس يلتقط أنفاسه. كان يحس من شدة الفرح أن قلبه يرسل صوتا كالذي ترسله جمرة صب فوقها ماء.

بعد أن هدأ قلبه وسكنت نفسه وتيقن من فوزه، أخذ يسأل عن زملائه في الصف وعن نتائجهم. كانوا قد نجحوا كلهم إلا ياسرا لم يحالفه الحظ. كان منزويا قرب أحد أركان الإدارة، والدموع تذرف ذرفا. لم يجد بدا من إيقافها، كانت تهبط من عينيه كمستقيمين متوازيين لا يلتقيان؟؟؟

لم يجد حميد ما يقوله لياسر في هذه المصيبة، فضمه إلى صدره وأخذا يبكيان معا. هذه هي الحياة. لم يواس ياسر في هذه المحنة غير حميد. كل

اشتغل بفرحته أو تعاسته. ما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم عند الحاجة قليل.

انتهى موسم التهاني والمواساة، وحل السؤال المصيري: ماذا بعد البكالوريا؟؟؟ ماذا بعد هذا الجهد؟ هذا المخاض العسير؟

كانت لحميد أحلام كثيرة؛ كان يحب الصحافة، يرى فيها مهنة المستقبل، مهنة يعشقها كثيرا. لم تكن له دراية كثيرة بصعوباتها وعقباتها فهي عنده مجرد معلومات وأخبار يتم البحث عنها وإبلاغها للناس.

كان يشاهد الصحافيين الذين يسيرون البرامج السياسية والرياضية، ويتمنى أن يكون واحدا منهم. ينتقل من حلم إلى حلم، فيستيقظ من غفوته ليجد المسافة بين الحلم والواقع كالمسافة بين الأرض والسماء. ما أجمل الحلم! كل أمنياتك تتحقق، تنمحي فيه الحدود، يصير المستحيل ممكنا، لا أحد يستطيع أن يوقفك عن تحقيق رغباتك. فقط أغمض عينيك وتمدد وألقي برأسك على وسادة، لتجد نفسك قطعت البحور وحررت الدول، ومسحت الحدود، وسافرت في السماء وبلغت الغايات، ونلت الأمنيات. ما أجملك يا حلم لو لم تكن سوى حلم؟؟؟

ماذا بعد الباكالوريا؟ في أي اتجاه سيسلك؟ هذا هو السؤال الذي كان يفكر فيه حميد.

في بداية الأمر كانت تطرح أمامه مجموعة من الاحتمالات أو لنقل هكذا بدت له الأمور. فإما أن يقبل في إحدى مباريات التوظيف التي أرسل لها خاصة المتعلقة بالخدمة العسكرية والأمنية – وهي كثيرة – أو أن يلتحق بإحدى المعاهد ويدرس الصحافة؟؟؟ ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن؟؟؟ فأما تلك المباريات فلم ينجح في أي واحدة منها، لأسباب أرجعوها له للسن والمرض و...و... وأرجعها هو إلى عامل الزبونية والمحسوبية. أما فكرة الالتحاق بالمعاهد فقد بددتها له المعدلات المرتفعة التي تطلب في الانتقاء الأولي. فلا هو توظف بإحدى المباريات، ولا المعاهد قبلته من أجل استكمال دراسته وتحقيق أمنيته!!!

جلس حميد يفكر في مصيره ومستقبله. يفكر في سنوات الدراسة ومشاقها. لقد درست اثنتي عشرة سنة. اثنتا عشرة سنة من الجد والكد تحملت فيها كل شيء، فقرا وجوعا وتعبا ونصبا. من أجل ماذا؟ من أجل مستقبل زاهر؟ كانت المدرسة بعيدة عن سكناي باثني عشر كيلومترا قطعتها مشيا على الأقدام ذهابا وإيابا. من أجل ماذا؟ من أجل مستقبل زاهر؟ اثنتا عشرة سنة مضت من عمري ماذا جنيت منها؟!! ورقة مختومة لا تسمن ولا تغني من جوع.

كان الناس يهنئونني على النجاح. كانوا يقولون فلان نجح في البكالوريا! فلان يدرس جيدا. ابن فلان ولد صالح. كنت حين أسمع هذه الكلمات أحس بنشوة جميلة. أود أن يظلوا يكررروا هذه الكلمات! كنت من كثرة ثنائهم

وانبهارهم بي وكأنني حققت إنجازا عظيما؟؟؟ يا لها من كلمات تثلج الصدر وتفرح القلب، تجعلك تسير في الطريق أو المنزل كبطل خرج من معركة منتصرا، معركة أبلى فيها بلاء حسنا؛ صال وجال في ساحة المعركة كفارس مغوار !!!

تمنيت لو تطول هذه المدة، الثناء المستمر، والإكرام المبالغ، والتهاني المستمرة، وحفاوة الاستقبال، وكثرة الولائم، والإحساس بالرغبة الجامحة في الانطلاق في أرض الله الواسعة، السفر واللعب والسمر فرحا بالنجاح، إنها لحظة ممتعة يصعب تكرارها. لو كانت لي قدرة على إيقاف الزمن لأوقفته في هذه اللحظة، ولكن الزمن لا يتوقف، يمشي في دربه ومساره الذي رسم له قبل الأزل مشية الواثق من نفسه، لا يلتفت لا يمنة ولا يسرة، ولا ينظر الى الوراء، يطوي الأيام طيا كطي السجل للكتاب، ومعها أحداثنا وأفراحنا وأحزاننا. ليت الأيام الجميلة تعمر طويلا. ولكن الزمن لا يلتفت، لا يلتفت أبدا.

حقيقة مرة وواقع أليم! هل كان الواقع دائما هكذا؟؟؟ هل الحياة ظالمة إلى هذا الحد؟ وهل الحياة تظلم؟ إننا نظلم الحياة معنا؟ دائما نعلق فشلنا وضعفنا على الآخر البعيد، أو المجرد القريب؟ هل كان محقا محمد سبيلا حين تحدث عن صعوبة تغيير نفسية الإنسان وطبعه من كائن أناني إلى كائن غيري؟ ربما؟ ومن يدري؟.

لكننا نسمع ونقرأ كثيرا عن نماذج مثالية في الإيثار ومحبة الآخرين؟ تضحي بكل شيء من أجل الآخر؟ وهل نلمس لهؤلاء أثرا بيننا؟ لقد مات الرجال الأخيار في هذا الزمن ولم يبق إلا الأشرار؟ دعك يا فتى من هؤلاء وهؤلاء. لماذا تحشر نفسك دائما في أشياء لا تعنيك؟ فكر في مصيرك ومستقبلك. هل كتب عليك أن تعيش فقيرا؟؟؟ إلى أين ستقودك الأيام؟ لم توظفك الشهادة التي كانت مصدر فخر لك وللأسرة. ولم تتسجل بها في أي معهد. ضاعت الصحافة؟ ضاعت الأمنية؟ ضاع الحلم؟ ماذا بقي لك غير الجامعة؟ لا شيء!!! وماذا ستفعل في الجامعة؟ ستضيع أربع سنوات من عمرك. أربع سنوات لتحصل على شهادة تقودك إلى طابور البطالة، ماذا فعل غيرك بالإجازة غير الخروج إلى ساحة العطالة. الجامعة لا تخرج إلا شبابا يائسا متذمرا كئيبا لا حول له ولا قوة له. كل النماذج التي عرفتها كانت هذه حالتها. فهل تنظم إليهم وتزيد الواقع الكئيب أكثر كآبة؟ ماذا لو كانت الجامعة هي باب النجاة؟ أيمكن أن تكون استثناء في زمن الانحناء؟؟؟

ألم

الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، حميد مازال يغط في نوم عميق، لم ينم في الليلة البارحة حتى الساعة الرابعة صباحا. أرقه التفكير، أذهب النوم عن جفونه. رن هاتف حميد كثيرا، لم يستطع الإجابة من شدة النوم. رن مرة ثانية، أجاب حميد بكلمات متثاقلة:

ألو...ألو من معي؟

أنا عزيز، حميد كيف حالك؟ إياك أن تقول لي أنك نائم. جهز وثائقك سأمر عليك بعد ربع ساعة لنجمع مستلزمات التسجيل في الجامعة. أتسمعني؟؟؟

أشك في ذلك!!! أشك في ذلك يا عزيز!

دق عزيز في باب منزل حميد. بعد مدة قليلة خرج حميد وأثر النوم باديا في وجهه، كان في وضعية يرثى لها، عينان متورمتان، من نظر إليه في تلك اللحظة لن يعرف حميد الذي كانت الابتسامة لا تفارقه، سيظن أنه كهل يحمل أثقال الدهر وأعباءه التي لا تنتهي!! تكلم حميد بكلمات تبدي أكثر مما تخفي!!

ذهب عزيز وحميد إلى المقهى، انزويا في ركن من أركانها. طلب حميد من النادل سيجارة. تفاجأ عزيز كثيرا لحالة صديقه. كان ينظر إليه نظرة

اندهاش وتعجب. أحقا يكون الذي أمامه حميد؟؟؟ حميد الذي كان يشد الخناق على ياسر ويدعوه إلى التشبث بالأمل والاستبشار بالمستقبل. لماذا يتغير الإنسان؟ لماذا يضعف أمام أشياء هو من يصنعها؟ لماذا يناقض نفسه؟ كيف تُقلِّب الأيام الإنسان من حال الى حال؟ يصبح سعيدا ويمسي حزينا؟؟؟ آه إنها الحياة؛ يبدو أن هذه الحياة حبلى بالأحداث والمفاجآت؟؟؟

حميد صاحب الهمة والارادة القوية تجتاحه موجة اليأس والإحباط. كيف أخرجه من هذه المحنة؟ كيف أغير ألمه إلى أمل؟ نعم الأمل هو الحل؛ الأمل هو ما يحتاجه حميد، هو الذي سيجدد عزيمته، هذا هو الحل.

تنبه حميد إلى اندهاش عزيز. عرف أن حالته تدعو الى الشفقة؛ فرد مجيبا عن اندهاش صديقه: أعرف يا عزيز أنك لا تصدق ما تراه عينيك، أعرف أن ما أقوم به هو غير صحيح. وأنت تعرف هذا أيضا. أعرف يا صديقي أنني كنت دائما أدعو الأصدقاء وأنهاهم عما أنا فيه. لكن..... صمت حميد ثم استرسل كلامه بصوت مرتفع وهو يضرب بيديه على الطاولة. أريد أن أنسى، أن أنسى يا عزيز. لا أريد أن أفتح عيني كل صباح فأسمع وأرى ابن فلان تسجل في المعهد الفلاني، وابن فلان التحق بالمدرسة الفلانية، وابن فلان حصل على الوظيفة. لا لشيء إلا لأنهم أبناء فلان وعلان و... و... ونحن يا عزيز من يسند ظهرنا؟ من يدعمنا؟ من يدافع عنا؟؟؟

لاحظ الناس ارتفاع صوت حميد. انتشى سجارته بألم، ثم أمسك بكتفي عزيز بقوة وقال: ألم نجتهد يا عزيز في الدراسة؟ ألم نبذل مجهودا؟ كيف ضاع كل شيء؟؟؟ هل هذا هو العدل؟ أين هي تكافؤ الفرص؟ أين تلك الكلمات الجميلة والشعارات الرنانة التي حفظناها عن ظهر قلب من كثرة تكرارها في التلفاز وفي الشارع وفي الخطب السياسية وفي كل شيء؟

يقولون لولا أبناء الفقراء لضاع العلم؟؟؟ أنظر إلى أبناء الفقراء فهم لا يجنون سوى التعب، وأغلبهم يعاني من الفقر والتشرد وقلة اليد. تبا لهم. تبا لهم.

إنني يا عزيز لا أرى إلا طرقا مسيجة، وأفاقا مظلمة. حقا هذه هي الحقيقة. ليتني أدركتها منذ زمان؟؟؟

اسمع يا صديقي هذه هي الحياة ليست متكافئة، ولن تقبل عليك كما تشتهي. بل لابد من عقبات، عقبات متتالية، الواحدة تلوى الأخرى، وكلما تجاوزت عقبة صغيرة إلا واجهتك أخرى أكبر منها. خذ مني هذه النصيحة. وهي لأب أمريكي نصح ابنه عند ولوجه الجامعة، قال له " لا تخشى العقبات الكبيرة فخلفها تقع الفرص العظيمة" و قال أيضا" قد لا يتطلب الأمر أكثر من شخص واحد لقلب حياتك رأسا على عقب".

نعم يا صديقي فخلف العقبات الكبيرة توجد حتما المهمات الجسيمة. ثم لا تحسب أولئك الذين ساعدتهم وضعيات آبائهم الاجتماعية في الالتحاق

بالمدارس الممتازة أنهم سعداء. فقد يملك الإنسان كل شيء؛ المال والجاه والمنصب والنسب، لكن السعادة قد لا تطرق بابه أبدا.

كان عزيز يريد أن يقنع حميد بعدم الاستسلام لليأس ويعيد إليه الأمل المغتصب، لذلك حاول أن يستدرجه في نقاش أي شيء. المهم أن يتحدث حميد ويخرج الألم المكبوت المحبوس في نفسه لعله يفرز أملا يعيده إلى حالته الطبيعية.

لذلك سأله عن السعادة. ماذا تقول فيها يا حميد.

السعادة؟؟؟ يبتسم ابتسامة خفيفة، ثم يقول: السعادة عندي هي تحقيق الفرد ما يريد؟

اذا كان الأمر كذلك فلماذا يضع عددا من الأوربيين وغيرهم حدا لحياتهم في سن مبكرة رغم أنهم حققوا كل متطلبات السعادة؟

سكت حميد مدة قصيرة ثم قال: لا أدري لا أدري...

قال المفكرون: خمس لاءات تحقق السعادة؛ لا تكره، لا تقلق، كن بسيطا، أعط أكثر، توقع أقل.

المفكرون فقط ينظرون، لا يعرفون الواقع، يعيشون في مثلهم العليا، والكثير منهم يسبح في بحر من النعمات، فأنى لهم أن يحسوا بواقعنا الكئيب.

ها قالوا: لا تقلق! كيف لك أن لا تغضب وحقوقك تهضم وآمالك تغتصب؟؟؟ ومع ذلك أعترف لك يا صديقي أن كلامهم يثلج الصدر.

أعتقد يا صديقي أنك في حاجة إلى تغيير المكان فقد قال الشاعر:

ما في المَقامِ لِذي عَقلٍ وَذي أَدَبِ *** مِن راحَةٍ فَدَعِ الأَوطانَ وَاغتَرِبِ
سافِر تَجِد عِوَضاً عَمَّن تُفارِقُهُ *** وَانصَب فَإِنَّ لَذيذَ العَيشِ في النَصَبِ
إِنّي رَأَيتُ وُقوفَ الماءِ يُفسِدُهُ *** إِن ساحَ طابَ وَإِن لَم يَجرِ لَم يَطِبِ
وَالأُسدُ لَولا فِراقُ الأَرضِ ماافتَرَسَت** وَالسَهمُ لَولا فِراقُ القَوسِ لَم يُصِبِ
وَالشَمسُ لَو وَقَفَت في الفُلكِ دائِمَةً*** لَمَلَّها الناسُ مِن عُجمٍ وَمِن عَرَبِ
وَالتِبرُ كَالتُرابِ مُلقىً في أَماكِنِهِ *** وَالعودُ في أَرضِهِ نَوعٌ مِنَ الحَطَبِ
فإِن تَغَرَّبَ هذا عَزَّ مَطلَبُهُ *** وَإِن تَغَرَّبَ ذاكَ عَزَّ كَالذَهَبِ

في الجامعة

إنها الجامعة، الداخل إليها مولود والخارج منها مفقود، سميت كذلك لأنها جامعة، فهي تجمع في رحابها طلبة من مناطق شتى، وعادات مختلفة، ولهجات متباينة حد التناقض، إنها جامعة لأنها تستوعب تناقضات المجتمع، ففيها الفقير والغني، والمنحدرون من أسر مطحونة مكلومة، الصغير والكبير، النساء والرجال، الإسلامي واليساري والليبرالي و"الإداري" واللامنتمون...

إنها الكلمة وضدها؛ الحب والبغض، الألم والأمل، الفشل والنجاح، السعادة والتعاسة، الموت والحياة، السلم والحرب، آه عن الجامعة، وحب الجامعة، لقد تركت في القلب لوعة لا تنطفئ، وحبا لا يفتر، وعشقا لا يذبل، وحنينا دائم التجدد والانبعاث، إنها الذكريات الجميلة، والأحلام البعيدة والآمال الرفيعة. ليتني امتلكت عجلة الزمان لكنت أوقفتها عند الجامعة، آه عنك أيتها المرأة اللعوب، حكم الجمال لك فتصرفت معي كما تشائي.

يا من فتنت قلبي، لو كنت لباسا لما استبدلتك بغيره حتى ولو صار قطعا بالية، ولو كنت طعاما لما غبت عن مائدة الغذاء، ولو كنت امرأة لتزوجتك. الجامعة تخرجك من نار الجهل وتدخلك الى جنة العلم، إنها الجامعة وكفى...

مساحة شاسعة، وفضاءات متنوعة، أول ملاحظة انتبه إليها حميد. قرب عتبة الباب وجد طاولة مكتوب عليها " مكتب الارشادات"، بها شخصان يزودان التلاميذ الملتحقين بمعلومات حول التسجيل. كان حميد يشعر بخوف وارتباك شديد، فلأول مرة سيشاهد فضاء كهذا، فضاء يسمع عنه الكثير، لكنه مع ذلك يظل غامضا، فليس من رأى وعاش كمن سمع؟ لا يستويان أبدا؟

تقدم حميد بدوره إلى مكتب الارشادات، وبادر الشخصين بالسؤال: أريد أن أتسجل في الكلية؟ فرد عليه أحدهما بابتسامة ورحب به. انشرح صدره وأحس بالارتياح، بل لم يصدق ما رأى، هل أصبحت الإدارة المغربية تتعامل هكذا؟؟؟ إنه تغيير محمود ومغاير لما ألفه في الماضي. هل أصابته غفوة نوم أم هي الحقيقة بعينها؟؟؟

نعم إنها الحقيقة. أخذ أحدهما يشرح له أحوال الدراسة بالجامعة ولوازم التسجيل وكيفيته. بالرغم من كونه لم يفهم من المصطلحات إلا القليل إلا أنه أعجب كثيرا بذلك الاستقبال، بعد ذلك أرشده نفس الشخص إلى المدرج لتعبئة استمارة التسجيل. بالمدرج وجد بعض الأشخاص استقبلوه بنفس الترحيب وأعانوه على تعبئة الاستمارة. ثم أرشدوه إلى القاعة 30 . قرب القاعة وجد مجموعة من التلاميذ في اكتظاظ مريع. ثم رأى رجلا يطلب منهم الانضباط. لم يكن مثل أولئك الاشخاص فهو كبير منهم، ولا يتكلم مثلهم. جلس ينتظر دوره، ثم أذن له بالدخول، وبعدها أرسله إلى القاعة 25. بها أجرى مقابلة

شفوية في مادة الفلسفة. سأله الأستاذ الموجه أسئلة كثيرة أجاب عن بعضها ولم يجب عن البعض الآخر. ليس عن جهل أو عدم معرفة، بل لظروف الامتحان وما يرافقه من ارتباك، والتحول في الزمان والمكان.

رفض الأستاذ الموجه قبوله في شعبة الفلسفة وقال له أنك لم تجب عن البديهيات. كانت صدمة جديدة لحميد.

يا الله حتى الجامعة، حتى الجامعة لا تريدني ؟؟؟

قال للأستاذ: لكنني أحب الفلسفة وأنا كما ترى حصلت على نقطة ممتازة في البكالوريا فكيف لا تقبلني؟؟؟

هذه تعاليم الإدارة. الأمر ليس بيدي، عدم إجابتك عن هذه الأسئلة تقصيك من هذه الشعبة. هناك سبع شعب بالكلية جرب حظك بها.

أحس حميد بالسخرية ولم يدري ما يجري في هذه الكلية. استقبال من نوع رفيع واستقبال من نوع رفيع أيضا؟؟؟ ما الذي يجري هنا؟؟؟ لماذا العقبات لا تنتهي؟ هل مصيري هو الصراع مع الأزمات؟ هل يأتي اليوم الذي أتنفس فيه الكرامة؟ أحيا فيه السعادة؟ تتحقق مطالبي وأحلامي؟ لا أطلب شيئا مستحيلا أو كبيرا أو غير ممكن؟ فقط أريد أن أتسجل في الشعبة التي أرغب فيها. لماذا يستكثرون عنا نحن الفقراء ،المساكين، المحرومين، المظلومين، المهمشين، المهقورين المعوزين، المضطهدين، حتى الأشياء البسيطة؟؟؟ حتى

الأشياء البسيطة تحتاج الى إجراءات وتعقيدات ومساطر وأخذ ورد وتشاور مع المسؤول، وكتابة طلب الى السيد الرئيس، وانتظار حضوره أمام عتبة مكتبه الذي يمنعك من دخوله حراس الأمن. ارحمونا ياناس فنحن أبناء هذا الوطن، إننا لا نريد مناصب سامية، أو مراكز قيادية، أو ثروة قارونية، لا نريد أن نقاسمكم خيرات البلاد الكثيرة التي انغمستم فيها حتى النخاع، نريد فقط أن نحس أننا أبناء هذا الوطن الذي نفديه بأرواحنا، نطلب العيش بكرامة وحرية. أريد طبيبا وعملا ومسكنا. أريد أن أتعلم بحرية، لا يفرض عليَّ أحد توجها معينا؟ هل تستكترون علينا حتى الدراسة في شعبة الفلسفة؟ نعم تبررون تصرفكم بأنكم تساعدوننا في التوجيه، شكرا لكم، أنا مسؤول عن اختياري، وإذا فشلت فسأتحمل مسؤولية فشلي، فقط أتركوني أختار بحرية، فأنا لست قاصرا، أعرف ما أريد، صدقوني سأبدع في ما أنا مقتنع به.

لم تعد الفلسفة فقط شعبة يريد حميد استكمال دراسته فيها، لأنها هي التي يجد ذاته فيها، ويميل إليها، والميل والإعجاب من أسباب التفوق، بل صارت صورة ذات وجهين؛ وجه للدارسة و آخر يمثل الكرامة، كرامة شاب اغتصبت أمنيته في الاختيار .

كان مصرا على انتزاع حقه الذي اعتبره حقا لا كالحقوق، ومن أجله سيخوض معركة الوجود، لكنه لم يكن يعرف ماذا يفعل، لذلك ذهب عند أصحاب الاستقبال الرفيع وعرض عليهم مشكلته، أجابه نفس الشخص، وقال

له هذا مشكل من مشاكل التسجيل الذي نعايشه كل سنة. ليس لأحد الحق في أن يفرض عليك طريقا معينا، بل مهمته توجيهك إلى الشعبة الأقرب إلى مستواك.

تفاجأ حميد من كلام الموظف واندهش منه. كيف لموظف في الإدارة أن ينتقدها؟ بل لم يقف عند هذا الحد، فقد أكد له أنه سيتسجل في هذه الشعبة إن كان مقتنعا بإمكانياته العلمية.

كان أصحاب الاستقبال الرفيع ينتظرون شخصا ربما هو المسؤول. لم يمر وقت طويل حتى ظهر الشخص المسؤول. سلم على الجميع بمن فيهم حميد. أخذ هذا الشخص الملفات وعرضت عليه أنواع المشاكل. تنهد وقال: مشاكل التسجيل مرة أخرى. حسنا سنطلب حوارا مع السيد العميد لنرى ماذا سيقول.

خرج الشخص المسؤول وعلى وجهه ملامح الغضب، تحدث مع بعض زملائه، ثم استدعى أحدهم حميد وباقي التلاميذ. وقفوا على شكل دائرة. سيعرف حميد في ما بعد أن هذا الشكل في الأعراف الطلابية يدعى ب" الحلقية" و أن أصحاب الاستقبال الرفيع هم ممثلو الطلاب. ثم أخذوا في التصفيق ورفعوا بعض الشعارات التي تعبر عن مطالب الطلاب وتشير إلى الإطار النقابي. اختلطت الأمور على حميد. ثم دخل الشخص المسؤول إلى وسط الدائرة وأخذ يتكلم بصوت مرتفع وحاد. اجتمع كل التلاميذ بعد سماعهم

الصوت، حتى الآباء والأمهات الذين حضروا معهم. أعجب حميد وكل الحاضرين بكلمة الشخص المسؤول، وتحمسوا كثيرا لملفهم. حين أنهى كلمته أخذ التلاميذ والآباء والأمهات يصفقون لخطابه.

بعد مدة فاقت خمسة عشر يوما عاد حميد إلى الجامعة و هو يحمل معه هموم التسجيل. قبل الذهاب إلى الجامعة وحل مشكل التسجيل كانت لحميد خطوة لابد منها، إنها خطوة الكراء، وما أدراك ما الكراء. إنه يشكل نقطة مهمة وعامل حاسم في الاستقرار. ثلاث نقط ينبغي استحضارها لتحقيق سكن مستقر وهادئ، أولها قربه من الحي الجامعي، وثانيها رفقة صالحة، والثالثة ثمن مناسب.

حي الرجاء تتوفر فيه هذه الشروط، لذلك اختار حميد وزميله عزيز البحث فيه، هو المكان الذي يفضله الطلبة أكثر، ذلك أنه قريب من محطة الحافلات المؤدية الى الجامعة، كما أنه يحتوي على مطاعم شعبية كثيرة وفي متناول الطلبة.

استقر حميد وزميله بعد مدة طويلة من البحث في غرفة بدار تتكون من ثلاث غرف بمبلغ أربعة مائة درهم للشهر، يتقاسما المطبخ والمرحاض مع الجيران.

الخطوة الثانية كانت هي تجهيز البيت بما يلزم من أواني وأفرشة، فكانت الوجهة السوق الشعبي المشهور بسم " سوق المسيرة" وهو سوق معروف يوجد

به كل شيء من خضر وفواكه وأواني وملابس وأفرشة وغيرها. فاقتنيا الضروريات فقط، نظرا لقلة الزاد.

عزيز لم تعترضه صعوبات في التسجيل، اختار شعبة الجغرافيا فمنحت له.

في صباح يوم الغد أعتقد أنه يوم الثلاثاء كانت لعزيز حصة مع الساعة الثامنة صباحا. ذهب عزيز إلى محطة الحافلات. جمهور كبير من الطلبة ينتظر الحافلة التي ستنقلهم إلى الجامعة. كان عدد الحافلات لا يكفي لنقل كل الطلبة، لذلك كان لابد من التدافع للوصول إلى الجامعة في الوقت المناسب. في هذه اللحظة تنشط حركة اللصوصية. "و قد صدق من قال مصائب قوم عند قوم فوائد" لكنها حركة محدودة بالمقارنة مع ما يقع في الخطوط الأخرى.

كان من بين الجماهير الغفيرة من لم تعجبه هذه الوضعية فاشتاط غضبا، وأخذ يتكلم بصوت عال، وجمهور الطلبة يستمع إليه مستمع الموافق المزكي لما يقول. أعجب حميد بذلك الشخص الذي تكلم بشجاعة ودون خوف من أحد، رغم أن رجال الشرطة كانوا بالقرب منه.

كان مضمون الكلمة هو التنديد بالوضعية المزرية ودعوة شركة النقل الوحيدة بالمدينة والسلطات العمومية إلى تحمل مسؤوليتها وتوفير أعداد كافية

لنقل الطلبة، خاصة في أوقات الذروة. وإلا فإن مناضلي الطلبة وممثليهم سيتخدون أشكالا احتجاجية.

غير أن ما أغضب حميد كثيرا، هو ذاك التصرف الطائش والانتهازي الذي قام به جمهور الطلبة، ذلك أنه بمجرد ما حلت حافلة حتى أخذ الطلبة في الجري والتدافع وراءها، كأنهم يلاحقون هدفا، التصقت فيه الأجساد بالأجساد، والوجوه بالوجوه، وتصاعدت الأنفاس حتى اختنقت الحافلة.

بعد معركة الحافلة بلغ عزيز الجامعة، كانت ساحتها شبه خاوية لا ترى فيها إلا طلبة مهرولين شمالا وجنوبا إلى حجرات الصف، وبعض الأعوان الذين يفتحون أبواب الأقسام أو يغلقونها. عزيز كانت تنتظره حصة الصباح، ولحسن حظه أن الحصة قد تمت. فالشائع في هذه الكلية أن الدراسة لا تبدأ إلا في آخر شهر أكتوبر، لتبدأ إضرابات الطلبة والأساتذة على حد سواء.

كان حميد ينتظر بالقرب من إحدى القاعات التي يجتمع فيها الطلاب عادة ويعقدون حلقياتهم ونقاشهم. كان ممثلو الطلاب قد وعدوه أن حل هذا الملف لن يكون إلا بعد العودة من عطلة العيد وانتهاء مدة التسجيل الرسمية بعد أن رفض العميد حل هذا المشكل.

العيد هو فرصة الفرح والمرح، والاجتماع بالعائلة والأحباب، غير أن حميد لم يذق طعم الفرحة والسرور، فقد كان ذهنه مشوشا، وعقله لا يبارح الجامعة، يفكر في الفلسفة التي رفض في تعلمها، والحلول التي سيتخذها،

والسبل المتاحة التي سيسلكها. طريقه غامض، وأمواج بحره عاتية، وسفينة الحياة لا تنتظر، ولا تعبأ بالمتساقطين، هي تمضي الى مصيرها، ومعها مصائر الأفراد والجماعات، لا أدري إلى أين تقودني سفينة الحياة، وهل أصل الى بر العلم والعمل، أم تقذفني في محطة من محطاتها، وموجة من أمواجها؟

الساعة تشير إلى التاسعة إلا الربع. حضر أحد ممثلي الطلاب، أخرج طاولة ووضعها بالقرب من الساحة العامة للكلية ، ثم جلس وأخرج ملفات. اعتقد حميد أنها ملفات التسجيل، وبالفعل كانت كذلك. تقدم حميد عند ذلك الشخص، تحادثا فيما بينهما، اكتشف حميد أن ملفه لم يبارح مكانه، أحس بالإحباط وسوء الطالع. طمأنه ذلك الشخص وقال له أن الأمل دائما موجود، وأن الإصرار يثقب الأحجار، فلا تيأس.

في حدود الساعة العاشرة إلا الربع عقدت حلقية في وسط الساحة. تحدث الشخص المسؤول عن مشاكل التسجيل التي لم تعرف جديدا يذكر، قال: "إن الإدارة تنهج سياسة الأذن الصماء مع قضايا الطلاب، وهي بذلك لم تترك لنا خيارا آخر سوى التصعيد، وخوض معارك نضالية تجبرها على الرضوخ والجلوس إلى طاولة الحوار وحل مطالب الطلاب العادلة".

مر الأسبوع بأكمله على هذا الحال، يأتي حميد في الصباح ويعود في المساء إلى حجرته. تذمر كثيرا من هذا الوضع، لكنه أقسم هذه المرة ألا ينعزل، بل زاده الوضع رغبة وإصرارا في تحقيق هدفه. لقد عقد العزم على

تحقيقه هدفه مهما كلف الثمن، لن يبكِ على وضعه كالنساء، لن يذرف الدموع هذه المرة، لن يشعر باليأس، لن يزيده الوضع إلا عزما وحزما ورغبة وإرادة تعبد الصعاب وتخترق الألباب، لا جامعة إلا في شعبة الفلسفة، لن أستجدي أحدا، لكنني لن أفرط في حقي، لن أخاف هذه المرة، أعرف الطريق والسبل المؤدية إلى الهدف، ليس لي ما أخسره، سأركب سفينة النضال، وأبحر في بحر التحدي، وأجدف بمجداف الأمل وأنخر عباب أمواج المشاكل والأزمات. سأتحدى مصيري، وأثبت جدارتي. أنا ابن مدرسة الأزمات، خريج الفقر والمعاناة، الغرباوي الفقير، سليل أسرة الشجاعة والنضال، وصاحب الضيعات المنهوبة والخيرات المسروقة. كان أجدادنا لا يخافون الصعاب، أبي من أسرة المحراث، وجدي بطل الصعاب والويلات، انحدرنا من صحراء قاحلة، وخضنا من أجل حقنا في العيش والحياة المعارك والبطولات الطويلة، لن أهاب المصائب بعد اليوم. سأحرر حقي وأنتزع عيشي وأفتخر بنسبي ومنبتي. سأنشد شعر الشاعر الفلسطيني طارق زياد:

"هنا لنا ماض وحاضر ومستقبل

وبالدم الزكي لن نبخل"

سأعيش ما أريد، ولن يفرض علي أحد ما يريد.

معركة الأمل

في صباح يوم الإثنين نزل حميد كالمعتاد إلى الكلية متحديا ومصرا على تحقيق هدفه. كانت أجواء الكلية مغايرة في هذا اليوم، فعدد الطلبة كثير، وجميع أعضاء ممثلي الطلاب موجودين بالكلية. كان الشخص المسؤول يتكلم ويبدو على وجهه الغضب. تقدم حميد وسأل عن الجديد فقال له ذلك المسؤول، الذي كان يدعى مصطفى:

اسمع يا حميد إن واقع الإدارة كما ترى ونحن سندعم ملفك وكل ملفات الطلبة الآخرين، لكن ينبغي لكم كمعنيين بالأمر أن تحضروا الأشكال النضالية التي سنقررها والمساهمة في إنجاحها.

امضي يا أخي فأنا لن أتنازل عن حقي مهما كلف من ثمن.

إن الأمر ليس بالسهولة التي تتصور، فقد يستغرق أياما وشهورا فماذا ترى؟

يا أخي لقد كانت لنا طموحات كبيرة قبل الباكالوريا، وقد تهاوت كما تتهاوى أوراق الشجر في فصل الخريف، ولم يبق لنا إلا الجامعة، وإني عقدت العزم ألا أفرط فيها مهما كلف الثمن. فهي الكرامة، وهي الأمل والنصر.

هذا كلام مشجع.

ثم ذهب إلى الآخرين وتحدث معهم عن نفس الأمر. أحس حميد أن مصطفى يخطط لأمر ما. و أن هذه العملية التي يقوم بها هي من أجل التشاور مع الأشخاص المعنيين فأعجبه الأمر.

بعد دقائق معدودة جمع مصطفى الطلبة حول دائرة "حلقية" وتكلم بصوت عال وبلهجة ساخنة، قال:

"أيتها الجماهير الطلابية نحن لسنا هواة إضراب أو شغب أو نضال، وأنتم كما تابعتم معنا جربنا الوسائل الحضارية مع الإدارة لعلها تعالج المشكل بود. لكنها تصلبت في أمور بسيطة ولا يقبلها عقل أو منطق، وهاهي قد مرت أسابيع دون أن نسمع جوابا واضحا أو حلا معقولا. وأمام هذا الوضع وبعد تشاور مع أعضاء المكتب والطلبة المعنيين، فقد أجمع الكل على أن الحق ينتزع ولا يعطى، لذلك قررنا جميعا الدخول في اعتصام مفتوح أمام عمادة الكلية، حتى تحقيق مطالبنا العادلة والمشروعة. وإنها لعقبة واقتحام حتى النصر. وإن للرجولة لثمن معلوم".

بعد أن أنهى مصطفى كلمته فتح باب المداخلات، فتدخل ثلاثة أو أربعة طلبة حول نفس الموضوع، لكن كلمة مصطفى كانت أكثر دقة وحماسا، فحديثه كان واضحا ومتزنا، كلمات محسوبة وإيقاع موزون، يرفع صوته حين يريد أن يؤكد أمرا ما، يتوقف أحيانا لشد الانتباه، ويخفظه أحيانا أخرى. حقا

إنه خطيب مفوه. بهذه العبارة عبر حميد ومن معه من الطلبة عن خطاب حميد.

مباشرة بعد انهاء الحلقية التي عقدت بساحة الكلية توجه الجميع نحو العمادة التي لا تبتعد كثيرا عن الساحة. ابتدءوا اعتصامهم بشعارات تعبر عن مشاكل الطلاب وتشير إلى الإطار النقابي " الاتحاد الوطني لطلبة المغرب يعلن هذا النشيد ويزغرد للشهيد

يا طالب يا طالب يا من يطمح للتجديد

هذه "أ. و. ط. م" الوفية رمز الفدا والتضحية

يا شهيد يا شهيد أنت في الدنيا مجديد أنت في الجنة سعيد أنت بركان يفيض

اتحدوا يا طلاب في "أ.و.ط.م" قوية، قواعد متينة، دوما للنضال حتى الانتصار

يا طلاب انضموا انضموا والشهيد ضحى بدمه.

يا طلاب انضموا انضموا والشهيد ضحى بدمه"

بعد ذلك أخذ مصطفى الكلمة وأعلن عن بداية الاعتصام ودعا الجميع الى التضامن مع أصحاب هذا الملف.

كان حميد يفكر في هذا الوضع البئيس الذي يضطر فيه الطالب المغربي الى أن يخلع جبة الطالب ويرتدي رداء المناضل، ويتساءل مع نفسه: ما الدافع إلى هذا كله؟ لماذا تتصلب الإدارة في ملفات تافهة ولا تستحق هذا المجهود؟ ما غرضهم من هذا كله؟ لماذا يريدون أن يفرضوا علينا خيارا لا نريده؟ وشعبة لا نرغب فيها؟ ماذا لو لم تكن هذه المشاكل؟ أليس من المعقول والصواب أن ندخر نضالنا وطاقاتنا في العلم والتعلم؟؟؟ ليت الأمر كذلك؟؟؟ ليته كذلك؟

مر الأسبوع بأكمله على هذا الحال، يفتتح الاعتصام في الصباح على الساعة التاسعة أو العاشرة صباحا، ويختتم بعد الرابعة أو الخامسة مساء. في بداية الأمر التزمت الادارة بالصمت، تظاهرت بأن الأمر لا يعنيها ولا يشكل لها أي حرج. لكن بعد أن شاع خبر الاعتصام في الجامعة وعرف تعاطفا من الجميع (الطلبة والاساتذة...) وبعد التهديد بخطوات تصعيدية أخذت الإدارة تنزل من برجها العالي رويدا رويدا... فقد قدمت مجموعة من الاجراءات الشفهية، لكنها قوبلت بالرفض، لسببين: الأول أنها شفهية، وبالتالي فإنها لا تتخذ صبغة الرسمية، وقد ترجع عنها في أي لحظة. أما الأمر الثاني فلأنها أنصاف حلول لا إلا.

في صباح يوم الاثنين عزم مصطفى ورفاقه الزيادة في جرعة النضال، فحملوا معهم حصيرا وأغطية وأواني وغيرها. وقبل البدء في الاعتصام هرول

ممثل الإدارة وأكد لمصطفى أن الملف حل حلا نهائيا. فرح مصطفى بهذا الخبر وساقه إلى الجميع. لكنه أكد لهم ضرورة التريث وتنفيذ خطوتهم النضالية المصحوبة بالأواني والأغطية، الأمر الذي ساء الإدارة فقامت بخطوات مستعجلة و أجرأت الحلول.

انتصار

كان هذا أول انتصار يحققه حميد، منذ أن توالت عليه الهزائم بعد نجاحه في البكالوريا. انتصار وأي انتصار. انتزع شعبة الفلسفة رغما عن أنياب الإدارة. نعم إن بعد العسر اليسر وبعد الصبر النصر... إنني أحس بنشوة عظيمة وولادة جديدة وعزمة مفيدة وإرادة فريدة يا عزيز.

نعم ياصديقي، وحق لك أن تفرح، فمن كان يسمع كلام الإداريين، فلا يمكن إلا أن يخرج بنتيجة مفادها أنك لن تتسجل أبدا في هذه الشعبة. فلا تسمع منهم إلا الكلمات التي تزرع اليأس والإحباط، مستحيل، غير ممكن، إنك لا تتوفر على الشروط، لا يمكن أن أخالف المسطرة الإدارية، أنا أطبق القانون. تبا للقانون وواضعه إن كان لا يصنع إلا يأسا وإحباطا.

لكن المستحيل صار ممكنا في الأخير. وضعف الشروط الذاتية قوتها الشروط الموضوعية، والذي كان غير ممكن صار ممكنا، ولم يعد للمسطرة رقيب ولا حسيب، ولا صار لقانونهم هيبة أو سلطان... كيف لا وهم يقيسون القوانين على مقاسهم وأهوائهم، ويضربون المصلحة العامة عرض الحائط، ولا يتحركون إلا إذا مس نظامهم. يضعون القانون ثم يخرقونه، لا يتركون صغيرة ولا كبيرة الا ارتكبوها، ثم بعد ذلك يقدمون لك درسا في القانون والأخلاق، إنهم لا يستحيون.

على كل حال الحمد لله على انتصارك وقبولك في هذه الشعبة. والآن ينبغي عليك أن تستدرك ما فاتك من دروس ومحاضرات، واستيعاب طريقة التدريس بالجامعة، فهي مختلفة كليا عن الدراسة في المرحلة الثانوية شكلا ومضمونا. وإنني وبعد شهر كامل من حضوري لكل المحاضرات، لم أستوعب كثيرا من الأمور والمفاهيم الجديدة.

مثل ماذا؟

أسمع الفصل والوحدة والشعبة والمسلك والمجزوءة وغيرها من الأسماء التي لا أفهمها.

أرى أن مصطفى سينفعنا في هذا الأمر فهو كما رأيت مطلع على كل صغيرة وكبيرة.

نعم قد يفيدنا ذلك الطالب كثيرا، لكنك تعرف موقفي جيدا، فأنا أحب الابتعاد عن كل ما قد يثير المشاكل، خاصة أن صاحبك له مواقف ساخنة.

ابتسم حميد ابتسامة خفيفة ثم قال: اطمئن يا صديقي فمصطفى همه مطالب الطلاب، وأنت تابعت ورأيت تعامله ووقوفه إلى جانبي. وعلى كل حال لست ملزما بشيء اتجاهه، وأنا سأستفسر منه عن كل شيء ثم أخبرك به.

شكرا لك يا صديقي العزيز...

التغيير

أعجب حميد كثيرا بشخصية مصطفى، طالب خدوم بشوش، يدافع عن المستضعفين، وكل من في الكلية يحترمه. يحضر الكلية منذ الصباح ولا يتركها إلا في المساء. مبادرا لحل مشاكل الطلبة. مواسيا ومتضامنا مع جميع الشعب الدراسية. وفوق كل هذا متواضع ومتفوق في الدراسة.

لقد أعجب حميد بمصطفى كثيرا، وتمنى أن يكون معه في كل لحظة، في الكلية والمنزل وفي الطريق. لقد حبب إليه الجامعة كثيرا، وفتح له باب الأمل، بعد أن سد في وجهه. وانبعثت إرادته من جديد.

كان حميد يراقب كل خطوة يقوم مصطفى بها، وكان يحب أن يستمع إليه، لذلك كان مواظبا على حضور حلقياته المتعددة، وبعد كل حلقية يذهب إليه ويستفسر منه عن شيء، أو لمجرد أن يسلم عليه. كان مصطفى يناقش الواقع السياسي والاجتماعي بالبلد، بجرأة وشجاعة منقطعة النظير. وبالرغم من أن كلام مصطفى كان يبدو لحميد كلاما عاديا، ويستطيع أن يقول مثله أو أفضل منه، إلا أن شيئا ما كان يجذبه إليه. لا يعرف على وجه التحديد ما هو، لكنه يحبه والسلام.

سأله ذات يوم عن التغيير، فقال كلاما عجيبا عنه، أقنع حميد كثيرا قال : التغيير يا حميد يحتاج إلى عاملين أساسيين من دونهما لا يمكن أن نتحدث

عن التغيير، أولهما رجال قادرون على تحمل تبعات الكلمة الصريحة المسؤولة، فإنما تأخرنا بغيابها، رجال مستعدون لدفع ثمن التغيير، فليس هناك تغيير بدون ثمن. ومخطئ وجاهل من يظن نفسه، أنه سيقدم بلدا متأخرا متخلفا وجاهلا، تنخره الصراعات والنعرات الحزبية، ويسوده الانتهازيون والوصوليون، دون أن يدفع ثمن ذلك من ماله أو حريته ووقته ونفسه إن اقتضى الحال. وثانيهما الزمن، فما فسد في قرون لا يمكن تغييره أو حتى إصلاحه في سنة أو بضعة سنوات، بل يحتاج إلى أجيال، تتنفس الحرية، وتعيش العدالة الاجتماعية، كرامتها مصونة، ورزقها موفور، عالمة عاملة، فإنما الإنسان يحصد ما يزرع، ومن لم يحرث فمن أين له بالزرع؟؟؟

فالتغيير يحتاج إلى تغيير دوافع الانسان وشخصيته وأفكاره، تغيير يسبق ويصاحب التغيير السياسي والاجتماعي، فلا تغيير بدون نهضة، ولا ينهض الجسم العليل المفكك، والتغيير حركة، ولا يتحرك المشلول.

ما تقوله يا مصطفى رائع لكنه مستحيل التحقق، فأين الرجال الذين يضحون بالغالي والنفيس من أجل أن يسعد الآخرون؟؟؟

هذا كلام يصنع اليأس يا حميد.

ماذا؟؟؟

نعم. وكأني بك تقول أن الرجال الذين يصنعون الأمجاد قد انقرضوا؟

لا. لم أقصد ذلك؟

أعرف أنك لم تقصد، ولكن كلامك دل على ذلك. الأمة يا حميد لم ولن تعدم رجالا يحبون الأمة ويصنعون مجدها، وهم موجودون في زماننا كما وجدوا في الأزمنة السابقة، وتاريخنا يحدثنا عن بطولاتهم. ولكن المعاشرة حجاب، ومطرب الحي لا يطرب.

ولكنني لا أرى لهم أثرا؟؟؟

ضحك مصطفى ثم قال: لأنك لا ترى" فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"

أثقلت علي يا مصطفى.

إنها الحقيقة يا حميد، وهي ثقيلة هكذا. وتحتاج إلى جلد لتحملها.

تفوق دراسي

مر الوقت سريعا، ولم يدر حميد حتى وجد نفسه في امتحانات الأسدس الأول التي استمرت خمسة عشر يوما. طول فترة الامتحانات وكثرة المواد يجعلها مرهقة ومملة، وضيق الحال وضعف الوضعية الاجتماعية، وقلة الطلبة المستفيدين من المنحة الهزيلة الأجر، وغلاء المعيشة يزيد الوضع تأزما.

على كل حال مرت هذه الفترة ومر ما صاحبها من إرهاق وملل وضغط. وأعلن عن نتائج الامتحانات بعد خمسة عشر يوما. نجح حميد في الفصل الأول، بل بالكاد نجح.

لم تكن النتيجة مفاجئة لحميد فقد كان يتوقع الأسوء، لكن الذي أثار انتباهه هو نجاح مصطفى وبميزة أيضا.

إن أمره لا عجب، وقته موزع بين النضال في ساحة الجامعة وقضاء حاجات الطلبة، وخارج أسوارها له التزامات كثيرة جدا. لكن ومع ذلك نجح؟ وبميزة أيضا؟ فهذا أمر جيد. يوم بعد يوم يكبر في عيني هذا الرجل.

طوال هذه المدة التي قضاها في المنزل كان دائما يستحضر مصطفي في حديثه مع أصدقائه أو أحيانا بمفرده، يفكر في ما يبذله من مجهود في خدمة الطلبة.

دامت العطلة غير الرسمية أكثر من خمسة عشر يوما قضاها في البيت. تستغرق عملية الامتحان في الجامعة مدة طويلة تصل الى شهرين قد تزيد أو تنقص بقليل أحيانا، موزعة بين مدة للتحضير وأخرى للامتحان، وثالثة للاستدراك. بعد هذه المدة الطويلة والمملة تستأنف الدراسة تدريجيا.

عاد حميد الى الجامعة وعلم أن مصطفى هو أيضا قد عاد بعد عطلة قصيرة، فقد قضى أياما معدودة ثم عاد الى الجامعة ومشاكلها ومسؤولياتها الملقاة على عاتقه.

في هذه الفترة تكون الجامعة هادئة جدا، وحال الطلبة موزع على ثلاث؛ فإما يستدرك المواد التي لم ينجح فيها في الدورة العادية، وإما يسأل عن نتائج زملائه، أو ينتظر محاضرات الفصل الموالي.

في الجامعة وجد حميد مصطفى مع بعض الطلبة يسأل عن نتائجهم، ويستطلع أخبار الناجحين والراسبين والمستدركين، ويجيب عن الهاتف الذي لا يكف عن الرنين.

قضيت جل اليوم معه، فلم يختلف أوله عن آخره، رنين وإجابة، أخبار سارة وأخرى سيئة، نجحت وبقي لك وحدة واحدة، لا للأسف لم تنجح إلا في وحدة واحدة. هذه هي مهمة مصطفى في هذه الفترة.

ظل الحال على هذا النحو قرابة الأسبوعين ولم يمل مصطفى أو ييأس. كنا نذهب إلى الجامعة في العاشرة صباحا تقريبا ولا نرجع إلى البيت إلا بعد الرابعة زوالا. قبل العودة إلى البيت كنا نمر عند صاحب الأكلات الشعبية، فكانت أكثر وجباتنا تناولا القطاني، ليس لأنها المفضلة، – فقد صرح لي مصطفى أنه لم يكن يتناولها في المنزل– بل لأنها أرخص الوجبات ثمنا.

كنت في البيت مع مصطفى، وقد كان يراجع رزمة من الأوراق، يحصي الأرقام ويعد النسب، وفجأة احمر وجهه وبدا عليه الغضب، ثم قال للأسف الشديد النتائج كانت هذه السنة أسوء من السنة السابقة في الأسدس الأول، فنسبة النجاح لم تتجاوز 34%.

أليست هذه النسبة ضئيلة جدا يا مصطفى؟ لماذا هي كذلك؟

الأسباب كثيرة يا حميد، كثيرة جدا؟ ومع ذلك يمكن أن أصنفها لك إلى قسمين: أسباب مرتبطة بالوضعية الاجتماعية الهشة، فمعظم الطلبة الذين يختارون الجامعة ينتمون إلى أسر فقيرة أو متوسطة في أحسن الأحوال. أضف إلى ذلك أن المنحة لا تعم جميع الطلبة، وأجرها لا يسمن ولا يغني من جوع نظرا لارتفاع سومة الكراء وغلاء المعيشة. فكيف ننتظر من طالب همه

الأول البحث عن ما يملأ به جوف بطنه النجاح في الدراسة؟ هل يمكن لطالب جائع أن يستوعب ما يقوله الأستاذ؟ طبعا لا، ففي أذن الجائع لا يسلك إلا صوتا يبشر بالخبز، وفي وعي المقهور المحقور لا يتضح إلا برهان الحرية.

وكم من طالب ترك الجامعة بسبب فقره، وعدد كثير منهم يجاوز بين الدراسة والعمل، وأي عمل إنه العمل الشاق في البناء.

أما الأسباب الثانية فمرتبطة بالمنظومة التعليمية، التي تعاني من قلة الأطر البشرية وبنية تحتية تحتاج الى التأهيل والزيادة، ومناهج تعليمية مشلولة. بالإضافة الى انسداد الأفق، وخيبة الأمل. فماذا تنتظر من وضع كهذا غير أن نصنف ضمن أسوء الدول تعليما!!!.

اختلاف

كانت ساحة الجامعة تغلي غليانا، أسابيع ثقافية، مهرجانات خطابية، حلقيات فكرية ونقابية... محاضرات وندوات، نقاش وجدال، مسيرات احتجاجية، ومعارك كلامية، وأحيانا عضلية، مواجهات بوليسية، قمع واعتقال وضرب، مقاطعات للدراسة، ووقفات تنديدية وتضامنية...هكذا تكون الجامعة في شهر مارس شهر الربيع ...

دخل حميد إلى ساحة الكلية فوجد حلقيات كثيرة. كانت الساحة تضم ثلاث حلقيات متضاربة متباينة متنازعة في ما بينها. كانت هذه أول مرة يشاهد حميد الساحة بهذا الشكل، تفاجأ كثيرا. فتساءل مع نفسه لماذا هذه التفرقة والنزاع الذي لا يفضي إلى نتيجة غير تشتيت الطاقات وتبديدها؟ أليس حري بهم أن يتوحدوا؟ ففي الوحدة القوة و في التفرقة الضعف، هذه نتيجة محسومة فلماذا لا يتوحدوا؟ لماذ لا يتجمعوا في شكل واحد ومطلب واحد؟ فالهم واحد، والخصم واحد، لماذا نتفرق إذن؟

إنه سؤال اعتيادي يطرحه كل وافد على الجامعة وغير مطلع على الواقع السياسي بها. سؤال يأتي مع، ويصاحب بداية الوعي الفردي والوعي الجماعي، وعي بقيمة الفرد ومصيره بعد الدراسة في شوق الشغل، وفي غمرة البحث عن لقمة العلم ومضغة الخبز ينضج الهم الجماعي، ومصير الأمة، وتقدمها وتخلفها.

جلس حميد يستمع لهذه الحلقيات؛ يستمع مرة لهذه ومرة لأخرى. لكنه لم يجد اختلافا بينهما، لا في الأهداف ولا في الوسائل. ولم يدر حميد حتى وجد نفسه غارقا في التفكير في هذه التعددية الزائفة الكاذبة المفرقة، في الجهود المبعثرة، والطاقات الضائعة، والفرص المهدورة. كان يتمنى ألا يرى هذه التفرقة. يتمنى أن يغمض عينيه فيراهم موحدين متجمعين، ولكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

حمل حميد أسئلته وهواجسه، أفكاره وأحلامه وذهب بعد انتهاء الحلقية مباشرة إلى مصطفى، ذهب ليستفسر عن سر هذا التعدد المفاجئ.

الجامعة مختلفة هذا اليوم يا مصطفى فما الخطب؟

جامع الفنا أليس كذلك؟ قالها وهو يبتسم ابتسامة قصيرة.

بلى إنها كذلك. وهذا ما جئت أستفسر عنه. لماذا هذا النزاع والتفرقة المبددة للطاقات؟ لماذا لا يتوحدوا ويشتغلوا جميعا، مادام غرضهم واحد، بل حتى وسائلهم موحدة؟

إن كل ما تقوله يا حميد صواب لا جدال فيه، بل هذا ما ينبغي أن يكون. ولكن الأمر ليس بالبساطة التي تتصورها يا حميد. مطالب موحدة إذن ينبغي أن نجتمع عليها، الأمر ليس بهذه السهولة على الإطلاق. الأمور أعقد من

ذلك بكثير. القضية لها جذور وتاريخ قديم. والأغرب من ذلك أن كل الأطراف العاملة بالجامعة تقبل الوحدة من الناحية المبدئية، ولكن المشكل في التفاصيل.

وفي التفاصيل يتدخل إبليس كما يقال.

نعم. المشكل في التفاصيل. ولكي تفهم ذلك جيدا لا بد من العودة إلى جذور المشكل، فهو ليس وليد اللحظة، بل له امتداد تاريخي ارتبط بمواقف المنظمة الطلابية من النظام وقضاياه، وامتداد جغرافي مرتبط بالحساسيات السياسية الممثلة بالجامعة وموقعها السياسي في المجتمع.

لم أفهم يا مصطفى واعذر بساطتي.

حسنا. ما شاهدته اليوم من حلقيات مختلفة تعبر عن توجهات سياسية وفكرية متناقضة، تنقسم إلى تيار إسلامي وتيار يساري، وكل تيار ينقسم بدوره إلى فصائل طلابية مختلفة، ومنتاقضة أحيانا كثيرة.

وضح أكثر رجاء؟

فالتيارات الاسلامية الموجودة بالجامعة تشترك في المرجعية الإسلامية، لكنها تختلف من حيث الأهداف والأفكار والموقف السياسي. والتيار اليساري وإن اشترك في المرجعية الاشتراكية فقد فرقته مواقف القيادات التاريخية له، كلينين وستالين وتروتسكي وماوتسي تونغ وكيفارا...

ورغم ذلك فالإطار النقابي، الاتحاد الوطني لطلبة المغرب (ا. و. ط. م) لازال يملك شرعية يتوافق عليه الجميع، رغم أنه لم يعقد مؤتمره منذ سنة 1981.

منذ سنة1981 إنها مدة طويلة، لماذا كل هذا الوقت؟

كما قلت سابقا المشكل له تاريخ طويل وهو لا ينجلي إلا بالنظر إلى كل أحداثه. فكما تعلم تأسست المنظمة الطلابية سنة 1956 بعد اتحاد مجموعة من الجمعيات الطلابية داخل المغرب وخارجه، كمنظمة نقابية تسعى إلى تحقيق مطالب الطلاب. غير أن هذه المنظمة ستتأثر بالمتغيرات التي شهدتها الساحة السياسية والحزبية بالبلاد. وستتخذ المنظمة مواقف مناوئة للنظام القائم بعد سنة 1959.

أي السنة التي انشق فيها حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عن حزب الاستقلال.

نعم بالضبط. هذه الوضعية ستوتر العلاقة بين المنظمة والسلطة، توترا سيبلغ أقصى مداه في المؤتمر الخامس عشر الذي عبرت أوراقه عن مواقف معادية للوحدة الترابية، فنتج عنه الحضر القانوني على المنظمة سنة 1973 . لتدخل المنظمة في فراغ تنظيمي امتد الى سنة 1979 حيث هدأت الأوضاع نسبيا فأقامت المنظمة مؤتمرها السادس عشر، وهو آخر مؤتمر ناجح بعد فشل المؤتمر السابع عشر سنة 1981 . فاستغلت السلطة فشل

المؤتمر وفرضت حضرا عمليا على المنظمة، ولم يستطع أي طرف منذ ذلك التاريخ هيكلة المنظمة بفعل هذا الحصار.

في سنة 1989 صرح وزير الداخلية أن أزمة المنظمة الطلابية هي أزمة ذاتية ولا علاقة للسلطة العمومية بها.

وماذا يعني ذلك؟

يعني أن هيكلة المنظمة من جديد مرتبط بالفصائل الطلابية، وهنا ابتدأ المشكل.

أي مشكل؟

التقطت الفصائل الطلابية هذا التصريح وشرعت في هيكلة المنظمة بدءا من سنة 1990. وهي سنة الأحداث التاريخية الكبرى؛ ففيها سقط جدار برلين، وانهار الاتحاد السوفياتي، وبداية الشرارة الاولى لحرب الخليج...

قبل هذا التاريخ بقليل عرفت الجامعة دخول وافد جديد، يحمل تصورات فكرية مخالفة للفصائل التاريخية القديمة، فوقع صدام بينهما، وصراع مرير على شرعية الوجود والعمل من داخل الجامعة، صراع ترك ندبات وجروح غائرة لا يزال المجتمع الطلابي والسياسي عموما لم يستطع التغلب عليها. على كل حال استطاع التيار الجديد فرض نفسه في الجامعة وانتزاع الاعتراف به جماهيريا في مدة وجيزة.

وماذا عن هيكلة المنظمة؟

اختلفت كل التيارات الطلابية حول الصيغة التي ستتم بها هيكلة المنظمة، وانقسموا جميعا إلى رأيين: فالأول يرى أنه ينبغي أن نبدأ بهيكلة فوقية تمر من لجنة التنسيق الوطني يكون هدفها التحضير للمؤتمر الثامن عشر، بينما رأى الثاني أنه من الأفضل أن نبدأ بهيكلة تحتية تبدأ من لجنة القسم وتنتهي بالمؤتمر.

أرجو أن تفصل أكثر وتذكر أسماء كل طرف وموقفه.

حسنا. تبنى فصيل الطلبة القاعديين التقدميين الخيار الأول، ولازالوا يشتغلون وفق هذه الطريقة إلى يومنا هذا، كما أنهم رفضوا العمل مع التيار الجديد.

تقصد التيار الإسلامي أليس كذلك؟

بلى.

ولماذا رفضوا ذلك؟

قالوا أنه يعرف تباينا في مواقفه. ونتيجة لهذا الموقف وقع صراع واقتتال في ما بينهما أثر كثيرا على الوحدة الطلابية.

ألم يكن بينهم رجل رشيد يوقف هذا الصراع؟

الصراع لم يكن بريئا على الإطلاق، فقد كانت وراءه أياد لها مصلحة في تأزم الجامعة!!!

ومن تكون هذه الأيادي؟

يضحك مصطفى. أعتقد يا حميد أنك لبيب وتستطيع أن تفهم بنباهتك من له المصلحة في التفرقة؟

حسنا سأخمن ربما أصل بنباهتي كما قلت... ثم يضحكان معا.

أما باقي الفصائل الطلابية فقد اختارت الخيار الثاني، وبدأت في هيكلة المنظمة بدءا من لجنة القسم إلى لجنة التنسيق الوطني، والتي كانت مهمتها التحضير للمؤتمر الاستثنائي، وهنا بدأ التشتت مرة ثانية.

من هم أصحاب هذا التيار؟

كل الفصائل الطلابية الموجودة والعاملة بالجامعة بدءا من سنة 1990 بما فيها اليسارية والإسلامية.

من ساهم في هذا التفرقة؟

الجميع ساهم في ذلك بشكل من الأشكال.

ماذا وقع بالضبط؟

الذي وقع هو أن الفصائل اليسارية التي شاركت في الخيار الثاني، رفعت يدها عن الجامعة، بينما الفصائل الاسلامية اختلفت حول تقييمها للمرحلة، فطرف رأى ضرورة إحداث لجنة التنسيق الوطني، بينما رأى الآخر أن الأمر يحتاج إلى تشاور ومشاركة الجميع.

صراحة هذه أسباب لم تقنعني. كيف سمحوا بتشتيت الجهود بسبب الاختلاف في تقدير أولويات المرحلة؟

نعم هي لا تقنع. لكن هذا ما حدث.

ألا تؤثر الساحة السياسية في الجامعة؟

بالطبع. ولها دور حاسم في تشكل المواقف والقرارات، وإن تتبعنا تاريخ المنظمة فسنجد تبعيتها للشارع السياسي، وخضوعها لتقلباته أمر لا يجادل فيه أحد.

أقصد أن سبب التفرقة راجع للواقع السياسي. هل هذا صحيح؟

نعم. للأسف الشديد. فالحساسيات الممثلة داخل الجامعة هي امتداد عضوي أو فكري، للتنظيمات السياسية في المجتمع، ومواقفها السياسية وقناعتها الفكرية تعرف تباينا وتناقضا، لذلك اختار كل طرف طريقة عمل بالجامعة تتناسب مع الموقف السياسي للتنظيم أو الفكر الذي ينتمي إليه.

وإلى متى سيستمر هذا الوضع؟ إلى متى سنظل منقسمين مشتتين!!! ألم يان لنا أن نعي حقيقة قوتنا المتمثلة في وحدتنا؟؟؟ العالم يا مصطفى كله يتوحد وينشئ التكتلات والتحالفات العسكرية والتجارية ونحن نتصارع على أمور تافهة؟

المشكل يا حميد ليس فقط في الجامعة، بل في المجتمع والوطن العربي والإسلامي، الذي لا يبحث عن الوحدة رغم أن العديد نادى بها ودعها إليها. وهو واقع له امتداد في التاريخ، وترسبات في الفكر والثقافة والوعي.

إنه واقع مرير يا مصطفى.

نعم. ولذلك نظم الشعراء حوله، وحاولوا منذ مدة استنهاض همم العرب، وخاطبوا نخوتهم كما فعل الشاعر ابراهيم اليازجي في قصيدة رائعة يشخص فيها واقع الأمة ويدعوها إلى النهضة، قال فيها:

تَنَبَّهُوا وَاسْتَفِيقُوا أيُّهَا العَرَبُ فقد طَمَى الخَطْبُ حَتَّى غَاصَتِ الرُّكَبُ

فِيمَ التَّعَلُّلُ بِالآمَال تَخْدَعُكُم وَأَنْتُمُ بَيْنَ رَاحَاتِ القَنَا سُلبُا

أللهُ أكْبَرُ مَا هَذَا المَنَامُ فَقَدْ شَكَاكُمُ المَهْدُ وَاشْتَاقَتْكُمُ التُّرَبُ

كم تظْلَمُونَ وَلَسْتُمْ تَشْتَكُونَ وَكَمْ تُسْتَغْضَبُونَ فَلا يَبْدُو لَكُمْ غَضَبُ

أَلِفْتُمُ الْهَوْنَ حَتَّى صَارَ عِنْدَكُمُ طَبْعًا وَبَعْضُ طِبَاعِ الْمَرْءِ مُكْتَسَبُ

وَفَارَقَتْكُمْ لِطُولِ الذُّلِّ نَخْوَتُكُمْ فَلَيْسَ يُؤْلِمُكُمْ خَسْفٌ وَلا عَطَبُ

لِلّهِ صَبْرُكُمُ لَوْ أَنَّ صَبْرَكُمُ فِي مُلْتَقَى الْخَيْلِ حِينَ الْخَيْلُ تَضْطَرِبُ

كَمْ بَيْنَ صَبْرٍ غَدَا لِلذُّلِّ مُجْتَلِباً وَبَيْنَ صَبْرٍ غَدَا لِلعِزِّ يَجْتَلِبُ

فَشَمِّرُوا وَانْهَضُوا لِلأَمْرِ وَابْتَدِرُوا م ِنْ دَهْرِكُمْ فُرْصَةً ضَنَّتْ بِهَا الحِقَبُ

لا تَبْتَغُوا بِالْمُنَى فَوْزاً لأَنْفُسِكُمْ لا يُصْدَقُ الفَوْزُ مَا لَمْ يُصْدَقُ الطَّلَبُ

خَلُّوا التَّعَصُّبَ عَنْكُمْ وَاسْتَوُوا عُصَبَاً عَلَى الوِئَامِ وَدَفْعِ الظُّلْمِ تَعْتَصِبُ

رائعة، رائعة جدا، تصف الوضع كما هو.

ولكن لا حياة لمن تنادي. فما عاد الشعر يؤثر في العرب فيستنهض هممهم كما كان في الماضي.

الحل

ظل حميد يفكر كثيرا في كلام مصطفى ومغزاه. كان نقاشا ساخنا فتح له بابا آخر لم يكن يدري عنه شيئا. وحدة طلابية، وحدة العرب، تحالف وتكتل عسكري، الصالح والمصلح، أسباب التغيير...

قبل مدة قليلة كانت هذه الأفكار غائبة عن فكري، بعيدة عن خيالي، وكأن جدارا عازلا كان بيني وبينها. في ما مضى كنت فقط أفكر في نفسي، أجتهد من أجل النجاح، أرغب في تحقيق أمنيتي، الصحافة التي ضاعت مني، حزنت كثيرا لما فشلت في تحقيق هدف من أهدافي بعد البكالوريا، وأحسست أن الدنيا قد انتهت وسدت كل الأبواب في وجهي، ثم جاءت الجامعة التي كنت مترددا كثيرا في التسجيل بها. كنت أقول أن الجامعة لا تنجب إلا شبابا يائسا معطلا، يجتر هموم العمل وندم الدراسة. يا للعار!!! الشباب يندم لأنه تعلم وأتم دراسته، فكانت دراسته سببا في حرمانه من بعض الأعمال التي أصحابها لا يحبون الطلاب الجامعيين، ويفضلون شبابا متعلما تعليما بسيطا لا يرقى إلى الجامعة، كانوا يقولون عن طلاب الجامعة: "مشاغبون، مقتنعون بأفكار النضال والزيادة في الأجر".

ثم جاء عزيز، صديق العمر، وألح علي إلحاحا شديدا لأتسجل في الجامعة، وها أنا قد تسجلت بعد معركة طويلة، –معركة استرداد الكرامة– لأجد أفكارا وأمالا أخرى تتسرب إلى ذهني، تجري في جسمي مجرى الدم. آه

على أمالي وأحلامي وأوهامي. متى أرى ما أرغب فيه محققا؟ متى تعود لنا كرامتنا؟ نمتلك زمام أمرنا؟ نفتخر بشعوبنا ووطننا؟ متى ننتصر على عظمة الأجنبي الأفضل منا في كل شيء؟ في الرياضة والسياسة والاقتصاد والأخلاق والإدارة والأعمال والخدمات، في احترام الإنسان وإكرامه، في حب الحاكم لوطنه وتفانيه في خدمته، وحب المواطن لوطنه وبذله كل غال ونفيس من أجل الوطن. يا الله ما أجمل الوطن لو كان يحبنا!!! ونشعر بحبه، يصلنا خدمة، كرامة، حرية، وعدالة اجتماعية.

وما الوطن غير هذا؟؟؟ عن أي وطن نتحدث إن لم يوفر لنا مسكنا وعملا، وطبيبا ومدرسة، وإدارة مواطنة. ليت الوطن يعلم كم نؤدي من ثمن من أجله. ليت الوطن يعلم كم نتأذي باسمه. ليت الوطن يعلم كم تسرق خيراته صباح مساء. ليت الوطن يعلم ما يتعرض له شبابه الأخيار من قمع وتفقير وتجهيل. ليت الوطن يعلم ما تتعرض له المرأة المغربية من إهانة وحط من كرامتها وتدنيس لشرفها. ليت الوطن يعلم حجم الطاقات المبددة والمواهب الضائعة، مسكين هذا الوطن، كل الجرائم تحاك ضده لكن باسمه. ليت الوطن، بل لعله يعلم...

كان حميد يفكر دائما بمعطيات الواقع، فيرى أمريكا وهيمنتها، وأوربا وتوحدها. والعرب والمسلمين وتشتتهم وجهلهم وتخلفهم عن الركب، فتبدوا له الوحدة ضرب من الخيال. لكنه يرجع أحيانا ويسائل نفسه: ألم تتوحد العرب

الممزقة قبائلها؟ كيف استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده توحيد المسلمين في دولة قوية هزمت أقوى الدول آنذاك، الفرس والروم؟ وهما من نعلم من قوة وبطش وتطور؟ لكن الرسول وصحابته الذين تربوا على يده وساروا على نهجه قد ماتوا؟ ثم يعود ويجيب نفسه:

لكن الرسول وإن مات فقد ترك رسالة منزهة عن التحريف، محفوظة من كل زيغ، وترك سنة نبوية شارحة ومفصلة، وعلماء ورثوا العلم فاجتهدوا في تنزيل الرسالة السماوية والسنة النبوية، ولازال النموذج الراشدي أفضل نموذج في سياسة الناس، فلماذا لا نقتفي بأثرهم في الإدارة والتسيير؟ أقصد أن نقتفي بروح الخلفاء وورعهم وصدقهم في أداء مهمتهم، أما الوسائل فنجتهد فيها، ولابأس من الاستفادة من غيرنا، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها؟

هل يكون هذا الإنجاز قد تجاوزه الزمن؟ لأنه نزل في زمن غير زماننا؟ أحقا لا يصلح لزمننا؟ وصار من المأثورات والقصص التي نتسلى ونتلذذ بترديدها، والافتخار بالإنجاز المجيد؟ أليس من مميزات القرآن أنه صالح لكل زمان ومكان؟ ألا يبهرنا علماؤهم باختراعاتهم العلمية القيمة التي نجد لها تأصيلا في كتابنا؟ إذن المشكل ليس في الكتاب ولا في الزمان، المشكل في المسلمين المتخاذلين القاعدين. صدقت يا شافعي في قولك:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ونهجوا ذا الزمان بغير ذنبٍ ولو نطق الزمان لنا هجانا

وليس الذئب يأكل لحم ذئبٍ ويأكل بعضنا بعضا عيانا

بات حميد ليله كله أسئلة محيرة وأجوبة مقنعة، وغوص في إشكالات، وتفصيل في اقتراحات. يحرر الدول، ويسقط أخرى، يقيم الحجة ثم ينتقدها، يبحث عن الحل، يفكر في الغد القريب، والمستقبل البعيد، والماضي المجيد، فلا يستقيم على أمر، ولا يستوي له عود.

في الصباح استيقظ حميد وأثر الأرق بادية على ملامحه، وجه شاحب وعينان متورمتان، شرب كأسا من القهوة ليخفف صداع الرأس.

ذهب إلى الجامعة ولا تزال تلك الأسئلة والأجوبة تراوده. يود أن يشاركه أحد هذا الهم الثقيل، الذي أرقه وأحزنه. أصبح كالمجنون يريد أن يقاسم الطلبة همومه، فسأل زميلا له في الصف عن رأيه في وحدة العرب قال له:

الوحدة (يضحك) ابحث عن شيء غير هذا تناقشه واستيقظ من نومك فنحن في النهار. قال كلمته ومضى وترك جروحا غائرة في قلب حميد.

يا فتى انتظر يا... يا... يا... حسنا لا بأس. لنجرب مرة أخرى. ثم سأل غيره فكان جوابه:

الوحدة هي درجة من درجات رقي الأمم وتقدمها، ونحن كما تعلم دول متخلفة عن الركب، أو كما نحب أن يسموننا، الدول السائرة في النمو. لكن السؤال المهم في نظري هو لماذا تقدم الغرب وتأخرنا نحن؟ هذا هو السؤال

الذي يشخص الواقع أحسن تشخيص، ويصف الداء وصفا دقيقا. وقد سبق وطرح هذا السؤال منذ بداية القرن العشرين واختلف الناس حوله الى ثلاثة آراء: فالأول يرى أن تخلفنا سببه ترك الدين ويستدلون بالآية " **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا**" ولا تقدم في نظرهم إلا بتعطيل أسباب التخلف، وذلك بالرجوع إلى الدين وتحكيمه في السياسة والاقتصاد والأعمال والمعاملات... بينما رأى التيار الثاني أن تخلفنا مرتبط بتشبثنا بالماضي البعيد، لذلك ينبغي أن نتجاوزه ونفعل كما فعلت أوروبا. أما الرأي الثالث فيجمع بين الرأين، يتشبث بأصوله، ولا يرى بأسا في الأخذ من تجارب غيرنا والاستفادة منهم.

وبين التيارات الثلاثة ضاع السواد الأعظم من الأمة. واكتفى بحربه مع الفقر والجوع والبطالة وما لست أدري...

ثم سأل طالبا آخر فقال له:

إن مجتمعنا يعرف تكتلات طبقية، تغيب فيها العدالة الاجتماعية، حيث تستأثر الطبقة البورجواجية الليبريالية بكل الخيرات، بينما الطبقة الكادحة تعيش في فقر وتهميش مستمر، والمعول على هذه الطبقة في صراعها مع الطبقة البورجواجية وتحرير الوطن من امبريالتها. إنه الصراع الطبقي كما تحدث عنه كارل ماركس قبل زمن.

لم يعلق حميد على أحد، ثم ذهب وخليط من الأفكار والآراء تعج في ذهنه، لكن تلك الأجوبة لم تقنع قلبه، لم تحرك المارد الكامن وراء العقل، الذي يبحث عن حل أزمة لا كالأزمات، وهفوة لا كالهفوات، إنه بحث عن الحقيقة الضائعة، والهمم النائمة. لذلك قرر أن يسأل آخر طالب عن الموضوع فقال له:

الوحدة هي تحصيل حاصل، هي تتويج لكثير من الجهد والعمل، وقبلها وأثناءها ينبغي أن نقوم بتشخيص دقيق لواقعنا.

ومن منا لا يعرف واقعنا، واقع البؤس والضعف والتشتت؟ إنما أريد أن أعرف كيف نغير هذا الواقع؟

لا يا حبيبي. فتشخيص الواقع أمر مهم، وإن كنا نعرف حقيقة واقعنا المزري، فإننا لا نعلم بالضبط سبب الداء، وإذا حققنا ذلك، سهل علينا معرفة الدواء، ثم طريقة استعماله. وهذا التشتت الذي تراه في مجتمعنا إنما سببه اختلافنا في تشخيص الداء، وهذا الاختلاف نتج عنه اختلاف في الوسائل والسبل. وتأمل معي حين أسألك بعض الأسئلة ستجد صعوبة في الإجابة عنها رغم أنها بديهية.

مثل ماذا؟

مثل: من نحن؟

يضحك. من نحن. نحن المسلمون.

ولماذا لا يظهر الاسلام في أعمالنا ومعاملاتنا؟

لأن...لأن ... لأننا لا نقوم بواجبنا. أو ربما... لست أدري

أرأيت إنه سؤال بديهي لكنه إشكالي، ليس من السهل الإجابة عنه. فنحن مسلمون بالإسم والمنطقة الجغرافية. مسلمون بالعادة والوراثة، نولد مسلمين. لكن أعمالنا تعرف تناقضات صارخة. إذن لماذا؟ لابد أن هناك خلل ما؟ والخوض في هذا هو بداية الطريق.

فتشخيصنا للمجتمع أول الطريق، أما وسطه فإعادة قراءة تاريخنا، ليس من أجل التباكي أو الجلد، ولا من أجل الافتخار والبكاء على الأطلال، وإنما من أجل استنطاق التاريخ بغية معرفة كيف وصلنا إلى هذه الحالة؟ ومتى وقع هذا التحول الرهيب؟

إن تاريخنا عرف اجتهادات وانتكاسات وانحرافات شديدة، حرفت عجلة تاريخنا، وقادت قاطرته الى واقع البؤس والتخلف هذا، واقع ابتدأ بالصراع والقتال من أجل مكاسب ذاتية، او تقلد مناصب سيادية، صراع طويل ترك فرقة سياسية واقتصادية وفكرية وهمية، مصدرها ذاتية مفرطة، وأنانية مستكبرة، تستغل كل شيء لصالحها.

هذا تاريخنا، وهكذا وصلنا إلى هذه الحال، لذلك فإنه لا سبيل لنا لإعادة مجدنا إلا بالاهتمام بالإنسان والاستثمار فيه، فكل شيء في هذه الحياة يدور حوله. وبالإنسان فقط نستطيع أن نعيد العجلة الى طريقها الصحيح. بالانسان ومعه، ومن أجله نعيد العجلة الى سكتها. عندما يتغير الإنسان الخامل، القاعد، ، الجاهل، المفقر، الخائف الجبان، المفعول به ، آنذاك نكون قد وضعنا أرجلنا على الطريق.

ولكن دون تحقيق هذه الغاية، أرواح تبذل، وأموال تنفق، وشباب يزهق، وصراع مرير ومستمر مع أعداء التغيير.

خلص حميد بعد هذه الإجابات الكثيرة أن التغيير ممكن، لكنه يحتاج الى الكثير من الجهد، وانتظار مرور الزمن، فجيله لن يكون جيل التغيير.

عطالة

1

مرت سنوات الدراسة سريعا، استطاع مصطفى أن يحصل على شهادة الإجازة بميزة حسن، بشعبة علم الاجتماع. هذه الميزة مكنته من اجتياز مباراة الولوج للمدرسة العليا للأساتذة. اجتاز الشق الكتابي، لكنه لم ينجح في الامتحان الشفوي.

لم تكن هناك فرص أخرى للشغل، كما أن وحدات تكوينات الماستر بشعبة علم الاجتماع كانت قليلة، ثم حتى إذا فتحت فإن نسبة التسجيل بها ضعيف جدا، إن لم نقل مستحيل. نظرا لعدة اعتبارات...

لذلك لم يكن من خيار أمام مصطفى غير انتظار السنة القادمة والتحضير الجيد لها، لعله يوفق هذه المرة في النجاح.

لكن كيف سيقضي سنة كاملة وقد أنهى الدراسة؟ بماذا سيملأ هذا الفراغ؟ ماذا سيفعل بعد أن أنهى دراسته، وتخفف من مسؤولياته الطلابية؟ هل يترك نفسه للفراغ وانتظار ما يجود به الزمن من عطايا؟ ذلك الزمن الذي توقف منذ زمن بعيد عن منحي عطاياه للفئة الفقيرة المطحونة. وأغذق كرمه على الأغنياء. الأغنياء في هذا البلد هم الأكثر حظا، لا يبذلون أي مجهود، لكنهم يستفيدون كثيرا من امتيازات لا محدودة. أبناؤهم لا يفكرون في الشغل فهو

مضمون، بل يبحثون عن أشياء يصعب علينا نحن الفقراء حتى الحلم بها أو تخيلها، مؤسف أن تعيش في وطن يمتلك خيرات كثيرة؛ طبيعية ومعدنية وبشرية؛ خيرات متنوعة، لكن مع ذلك يرزح شعبه في الفقر والجهل والأمية.

هذه إحدى الأسئلة التي كان يبحث لها مصطفى عن جواب. كان يؤمن أن الفراغ مفسدة للعقل والجسم والبدن، وقتل للطاقات وإقبار للإبداع. لذلك حسم مسألة الرجوع إلى المنزل، فلن يعود إلى البيت ويجلس مكتوفي الأيد ينتظر دريهمات أبيه المعدودة. كان يشعر بالخجل الشديد عندما يمنحه أبوه مالا أيام الدراسة، فكيف يقبله منه وهو حر طليق؟ إن نفسه تأبه ذلك، لا تراه مناسبا. لكن ما الحل أمام هذه الوضعية؟ ما هي الوسيلة التي ستمكنه من ملأ فراغه، وفي نفس الوقت توفر له قوت يومه؟

هل اشتغل بإحدى شركات الأسلاك المعدة للسيارات، فهي تقاضي أجرا يبلغ 2200 درهما عن كل شهر. مبلغ قد يوفر لي قوت يومي، وسومة كرائي. لكن نظام العمل عندهم قاس جدا، فهم يشتغلون مدة ثمان ساعات مستمرة، ثم أسبوع يكون الشغل بالليل، وأسبوع بالنهار، وثالث يجمع بينهما. إنه عمل لا يفكر في الإنسان وحاجياته، راحته وسعادته، فهو مجرد وسيلة من وسائل الإنتاج، أحيانا يطلب منه زيادة ساعات إضافية عن العمل. ورغم أنها مؤدى عنها إلا أنها ترهق العمال كثيرا. يفقد الفرد قيمته الانسانية، ويتحول الى آلة يتوزع وقتها بين العمل والنوم، كثير من الأسر تفقد جوها الحميمي،

فالزوج والزوجة العاملان نفس العمل قد لا يلتقيان إلا يوم الأحد، فالعمل لا يترك لهم فسحة لذلك.

لا لا هذا العمل لا يناسبني فلن أستطيع التحضير للمباراة التي هي أملي الوحيد... ماذا بقي إذن؟ يجب أن أبحث عن أنشطة الدعم والتقويم ربما تفي بالغرض؟ لكن أنشطة الدعم لا يشرع فيها إلا بعد شهر فبراير في المواد الأدبية؟ إذن أقوم بالتدريس في المدارس الخاصة. هذا إن قبلوا بي.

ظل مصطفى ليله بأكمله يفكر في الوسيلة التي يجني من خلالها مصدر رزقه دون أن تؤثر في إعداده لمباراة التدريس.

في الصباح أعد بطاقة المعلومات الشخصية، وقام بنسخ عدة نسخ منها، ثم توجه إلى المدارس الخصوصية. كان أمامه خيارين لا ثالث لهما، أن يدرس مادة الفلسفة بالثانوي، أو أن يدرس في السلك الابتدائي.

راسل العديد من المؤسسات بلغت اثنين وعشرين مؤسسة، كلهم أجابوا برد واحد، ابتسامة خفيفة ثم سنتصل بك عندما نحتاج اليك...

مر الأسبوع الأول والثاني والثالث ... لكن لا أحد اتصل. أحس مصطفى بالحزن والإحباط. كان مصطفى كثير الأنشطة فهو فاعل في العديد من المجالات، إلا أن الإحساس بالفراغ وضياع الوقت دون القيام بعمل ما أصبح يهيمن ويسيطر على نفسيته، بدأ الانهزام يتسرب إليه، انتقلت روحه المليئة

بالدعابة –رغم سمات الجدية والمسؤولية– الى جسم حزين ووجه مهموم. وأصعب شيء على النفس والبدن والعقل هو الإحساس بالضياع، وتبذير الوقت وإهدار الطاقات.

جلس مصطفى منعزلا في بيته، يفكر في حاله، لا يكلم أحدا، لعله يصل إلى نتيجة تحقق الغرض. لكن كيف وغيره كثير حصلوا على شهادات عليا، لكنهم لازالوا يجترون خيبات الأمل، ديدنهم الجلوس في المقاهي، بعد أن يئسوا من انتظار المباراة التي أصبحت كالكبريت الأحمر.

هل يعقل أن أعيش في بلد يتوفر على واجهتين بحريتين، وأراضي منبسطة وغنية بالخيرات الفلاحية، ومناخ معتدل مساهم في التنمية إن استثمر، ومعادن كثيرة ومتنوعة، نحقق في الكثير منها رتبا متقدمة في الإنتاج والتصدير، وساكنة نشيطة، بل إن العديد منها من الأدمغة التي لا يهتم بها فتهاجر إلى حيث يهتم بالطاقات. أن أعيش في بطالة وعطالة قاتلة مدمرة؟

لم ييأس مصطفى من هذا الوضع، فاليأس مجلبة للحزن والضعف، لذلك قرر أن يشتغل بالتجارة حتى يضمن قوت يومه، فالكريم من لا يمد يده لغيره استجداء لرحمته حتى لو كان أقرب الناس إليه.

اقترض مصطفى بعض المال من زملائه، وقرر المغامرة في التجارة، التي لم يكن يعرف عنها الكثير، بل حتى القليل. لذلك ذهب عند أحد الباعة الذي كان يبتاع منه أحيانا.

كان البائع في منتصف الستينات من عمره، طيبا وحنونا ومحبا للطلبة، لذلك لم يبخل عنه بتجربة الميدان، فقال له:

يا بني التجارة خير لك من كل شيء، فهي ستغنيك عن الحاجة والسؤال، وستعلمك أشياء كثيرة، وحتى نبينا عليه الصلاة والسلام أمر بذلك حين قال " علموا أبناءكم التجارة ولا تعلموهم الإجارة".

يا بني عليك بأمرين في التجارة فهما خير لك في الدنيا والآخرة.

ما هما يا عم؟

التوكل على الله في كل شيء، فما خاب من استعان به. يابني " إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ وإذا نلت محبة الله ماذا فقدت؟ لم تفقد شيئا. وإذا غابت عنك محبة الله ماذا وجدت؟ لم تجد شيئا. النتائج والثمار والخصائص التي تترتب على محبة الله لا تعد ولا تحصى منها: إذا أحبك الله ألقى محبتك في قلوب الخلق، وإذا أحبك الخلق فهذا رأس مال لا يقدر بثمن. إذا أحبك الله منحك الحكمة،(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا). التوكل يا بني إحساس ينبع من القلب وجوارحه، اتخذ الأسباب كأنها كل شيء ثم توكل على الله وكأنها ليست بشيء"[1].

[1] من كلام النابلسي

أما الثانية يا بني فهي الصدق، كن صادقا يا بني، فإذا اشتريت البضاعة بثمن فلا تكذب من أجل البيع فرزقك لن يأخذه غيرك. يا بني لقد قسمت أرزاقنا قبل أن نولد، وما علينا نحن إلا أن نختار طريقة سعينا إلى رزقنا. وتسلح بحكمة الحسن البصري رحمه الله الذي قال"علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به وحدي، وعلمت أن الله مُطلع علي فاستحييت أن يراني عاصيًا، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي"

يا بني هذه عصارة تجربة ثلاثين سنة من العمل في التجارة، وقد عرفت الشيء الكثير، ومررت بتجارب وعجائب كثيرة في البيع والشراء. وإليك هذه القصة:

قبل أن أفتح هذا المتجر بسنين لا أدري عددها، فالزمن أصبح يمضي سريعا – وهذه من علامات الساعة يا بني– كنت أتجول في الأسواق بين المدن والقرى؛ في أحد الأسواق لعله كان يقام يوم السبت ببلدة صغيرة، كنت قد ذهبت إليه أول مرة. وفي تلك المرحلة كنت أتاجر بالأواني. ولم يكن بذلك السوق إلا تاجر واحد يمتلك جميع الأواني. فلما هيأت مكاني بالقرب منه نفر مني كثيرا وأساء معاملتي ظنا منه أنني سأنافسه في رزقه. استمر الوضع على حاله مدة ليست بالقصيرة. ثم اكتشفنا جميعا أنه عندما يغيب أحدنا على

السوق نكسب أقل بكثير عندما نحضر معا. عندها تأكدت يقينا أن الرزق مقسوم بين العباد فاطمأن قلبي.

أحسن الله إليك يا عم فلقد أثلجت صدري وفرجت همي وأزلت كربي وفتحت لي باب الأمل، وصارت الطريق نبراسا. لكن يا عم دلني على تقنيات التجارة، فلم يسبق لي أن مارستها. كيف أحدد ثمن البضاعة؟ وكيف أعرف ثمنها الحقيقي في سوق الجملة؟ وماذا أفعل إن لم تنفذ مني البضاعة بعد مدة طويلة؟

تشتري البضاعة من سوق الجملة، فتضيف إلى ثمنها، مصاريف النقل، واحتمالات فساد جزء منها، وبناء عليه تحدد الثمن المناسب لها، لكن احرص أن يكون مناسبا لقدرة المواطن. ولا تنسى يا بني أن البضاعة كلما مر وقت طويل دون بيعها زاد احتمال ضياعها، لذلك لا تتردد في البيع ولو بثمن قليل.

تسلح مصطفى بنصائح الرجل الطيب، وعزم على خوض تجربة التجارة، هو لم يجربها من قبل، لذلك كان يشعر بالخوف، لا يدري سببه بالضبط. لكنه خوف طبيعي، فالإنسان يخاف مما يجهله.

في الصباح الباكر توجه مصطفى الى سوق الجملة، اشترى أربعة صناديق من الموز والتفاح، قضى في بيعهم ثلاثة أيام ربح فيها مبلغ 150 درهما، مبلغ صغير لكنه يفي بالغرض.

استمر في التجارة قرابة الشهرين، كلما أنهى بضاعة اشترى أخرى، وتراوح ربحه بين 200 و400 درهما خلال كل ثلاثة أيام.

لكن هذه التجربة المفيدة ستضع لها الشرطة حدا. لم يكن مصطفى يملك متجرا، فيبيع بأزقة الشوارع كما يفعل غيره من الباعة المتجولين، الذين اعتادوا على تدخلات الشرطة التي تمنعهم بين الفينة والأخرى، لذلك لما حضرت الشرطة استطاعوا أن يجمعوا بضاعتهم في سرعة خاطفة، ثم عادوا بعد أن مرت دورية المراقبة. أما مصطفى فلم يكن يعلم عن هذه اللعبة بين الشرطة والباعة شيء، فكان كبش الفداء. قبضت عليه وصادرت بضاعته، وأخذوها إلى المحجز.

تعرفت الشرطة على مصطفى، قال أحدهم يخبر المسؤول: إنه الطالب الذي كان يثير المشاكل بالجامعة، ويحرض الطلبة على الاحتجاج وشق عصا الطاعة.

إذن رحبوا به جيدا وأكرموه من لذيذ طعامنا.

أدخلوه إلى غرفة صغيرة ومظلمة، ليس فيها إلا نافذة صغيرة، قريبة من السقف، كان ضوء الشمس يدخل منها فيذكره بالحياة، يتسلل الضوء عبر فتحة النافذة ليخبر السجين المحروم بقيمة الحرية المغتصبة. تخبره الأشعة المتلألئة بجمال الطبيعة ومحنة الحرمان وحالة الوجد.

أدخلوه الى هذه الغرفة التي تنبعث منها روائح الظلم، وآهات العذاب، وشكاوي الفقد وغربة الأهل. ثم شرعوا في إكرامه ضربا ورفسا وسبا، وبعد أن أحسنوا ضيافته كما أمرهم كبيرهم الذي علمهم السحر، وأكرموا غرورهم أطلقوا سراحه.

ذهب مصطفى الى المحجز لاستيراد البضاعة والعربة، فطلبوا منه مبلغا تعجيزيا مقابل تحريرها، لذلك اضطر إلى التخلي عن العربة والبضاعة، وبذلك انتهت تجربة التجارة.

عاد للبحث من جديد عن عمل يناسب لوضعيته، جلس قرابة الأسبوعين دون عمل، لكنه كان يشغل نفسه بأي شيء حتى لا يدع فرصة للفراغ يفسد نفسيته ويحطمها، فتارة يقرأ، يقرأ كل شيء، الفلسفة والأدب والدين والسياسة... وتارة يزاول الرياضة، وتارة يزور الأحباب والأصدقاء، بهذا استطاع أن يقاوم مرض الفراغ، ذلك المرض المزمن الذي انتشر كهدير الرياح في زمننا.

ثم عمل بمقهى للأنترنيت، لم يكن يتقاضى الكثير، إلا أن القليل خير من الجلوس. يبدأ عمله من الساعة الثانية عشر ولا ينتهي إلا بعد العاشرة ليلا.

استغل فرصة العمل بالمقهى في الدراسة والمطالعة وتجاوز عثرات التكوين في شعبة الفلسفة.

كان اختياره العمل بالمقهى خيارا صائبا، فقد استطاع أن يضبط تخصصه كثيرا، كما أنجز الكثير من الامتحانات السابقة حتى يتدرب على أسئلة امتحان المدرسة العليا للأساتذة.

مر الوقت سريعا، وانتهى الموسم الدراسي، وأعلن عن المباراة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر، إنها الأمل الوحيد؟؟؟

اجتاز الشق الكتابي بنجاح، كان الامتحان عبارة عن سؤال فلسفي حول السلطة والعنف، ثم نجح في الشق الشفوي منه، ومن تم يكون قد قبل في المدرسة العليا للأساتذة.

أحس مصطفى بنشوة النجاح، وفرح فرحا شديدا، فالسعادة هي النجاح بعد الجهد والجد والاجتهاد.

إنها نهاية المحنة وبداية المحنة أو هكذا ظن؟؟؟

2

لم يكن هناك شيء اسمه العطلة عند أبناء الفقراء، خاصة الذين يقطنون بالبوادي. من المدرسة إلى العمل، ومن العمل الى المدرسة، بل حتى يوم الأحد في أيام الدراسة هو يوم عمل، فالأشغال كثيرة، والجلوس في المنزل دون أداء مهمة أمر مرفوض، ويقدح في الرجولة.

وحتى عندما انتقل عزيز الى الجامعة وصار طالبا، لم يكن يستفيد من أيام العطل إلا النزر القليل، فقد كان مطالبا بسد حاجياته، ومصاريف الجامعة الكثيرة، لأن المال الممنوح من طرف العائلة لا يكفي، خاصة أن ضرورات الحياة قد تغيرت، والمعيشة أصبحت ملتهبة، والكراء دائما في تزايد. لذلك كان يلجأ إلى العمل في عطلة الدورة الأولى، والعطلة الربيعية، وأحيانا حتى في عطلة آخر الأسبوع. أما في العطلة الصيفية فالعمل فرض عين، إنه فصل الجد والجهد وجمع المال وتوفيره.

كان في المرحلة الثانوية يعمل في الفلاحة، فالمنطقة التي يقطن بها غنية فلاحيا. وهي المصدر الرئيسي لعيشهم، كانوا يزرعون مزروعات مختلفة، منها القمح والشعير والشمندر السكري والفواكه المختلفة والخضر... فكان يقضي صيفه بأكمله في العمل ويدخر ما يجني لبداية الموسم الدراسي. لم يكن أبوه يمتلك الكثير من الأراضي، فقط بضعة هكتارات يزرعها فلاحة تقليدية بالكاد تكفي العائلة في سد نفقاتها.

منطقة الغرب هي جنة المغرب فلاحيا، أراضي منبسطة وخصبة، أنهار مختلفة، أهمها نهر سبو الدائم الجريان، بالإضافة الى أنهار أخرى "كورغة" و"رضات" و"بهت"ومناخ معتدل؛ ممطر شتاء وحار صيفا، بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي الذي يجعلها قطبا اقتصاديا يذر سيولة مالية مهمة. غير أن إرث الاستعمار ترك قسمة ظالمة وغير معقولة.

ورث أبي قطعة أرضية صغيرة هي ما نتقوت بها، معظم الفلاحين هنا لا يملكون إلا القليل من الأراضي، أخذها المستعمر ظلما وغصبا، ثم تركها لعملائه من بعده. كان الناس يجبرون على بيع أراضيهم إبان الاستعمار وبعده بأثمنة مجحفة، كم من فرد باع أرضه مكرها بخبزة، أو قالب السكر... من تعنت وسولت له نفسه معارضة رغبة القايد يجز به في "المطمورة"[2]. القايد هو كل شيء، هو الحاكم الفعلي والمعنوي في حيزه الجغرافي، وتاريخنا القريب يحكي لنا عن جبروت وتغول سلطة القائد.

جدي من أمي كان أبوه يملك أراضي كثيرة جدا، مئات الهكتارات سلبت منه بالقوة والحيلة. من كان يملك رهطا ودهاء وقربا من سلطة القايد يستطيع أن يأخذ الأراضي وينتزعها، هكذا وقع لجدي المسكين، أُجبر بالقوة على ترك أراضيه وساح في أرض الله الواسعة يعمل في الضيعات وهو صاحب الضيعات. لم يستطع جدي تقبل هذا "العار" فترك القبيلة واستقر في قبيلة

[2] حفرة كبيرة تستعمل لتخزين القمح خوفا من فساده

غرباوية أخرى، بها تزوج وأنجب وترك ذرية، أنا من صلبها، أحكي الآن للعالم عن تاريخ لا ينسى، وعن ظلم يجب ألا يبقى.

في بداية الموسم يشتري مما ادخر الملابس الجديدة والكتب المدرسية، ومبلغ مهم يوظفه في أداء الكراء والمأكل والمشرب إلى أن تصرف المنحة الأولى التي لا تصرف في الغالب إلا بعد مرور شهرين على انطلاق الدراسة الفعلية بالجامعة.

ثم غير وجهته بعد التحاقه بالجامعة الى أعمال البناء والزخرفة، واستقر في فن الزليج الذي كان يذر عليه مالا مهما، كما أنه عمل لا يتطلب مجهودا كبيرا مقارنة بأعمال الفلاحة والبناء. ويمكن الاشتغال به حتى أيام الدراسة، وهذا ما كان يفعله.

لذلك لم يكن عزيز يهتم بما يجري في الجامعة، فلا يسلك في أذنه إلا العمل والدراسة.

مرت سنوات الإجازة سريعا، وحصل عزيز على الإجازة بميزة مستحسن في شعبة الجغرافيا. راسل المدرسة العليا للأساتذة واجتاز الامتحان الكتابي، لكنه لم ينجح.

فتحت بالكلية وحدات كثيرة لاستكمال الدراسة العليا في شعبة الجغرافيا، ابتسم له الحظ في وحدة الجغرافيا الطبيعية.

كانت الدراسة بهذا التكوين جد صعبة مقارنة بسلك الإجازة، فالبحوث كثيرة، والطالب ملزم بإنجاز العروض والمشاركة في الندوات والمحاضرات تنظيما وتأطيرا. مما يتطلب لزاما التنقل بين المدن والمكتبات للبحث عن الكتب والمعلومة والمصادر والمراجع. إلا أن الأمر يتطلب أموالا للقيام بهذه الأمور، لكن ليس كل الطلبة ممنوحين، وحتى إن كانوا كذلك فمبلغ 1300 درهم خلال ثلاثة أشهر غير كافي لسد نفقات التنقل وطبع البحوث فقط.

على كل حال كنت من الطلبة الممنوحين. مرت السنتين رغم معاناتها بسلام، وحصلت على شهادة الماستر بميزة. ثم ماذا بعد؟ ماذا وجدت؟ شهادة عليا وجيب فارغ. شهادة عليا وأفق مسدود. شهادة عليا وأبواب موصدة. شهادة عليا بدون عمل لا تسمن شيئا في هذا البلد، بالعمل المناسب تحقق قدرا مهما من الاعتبار، فالعلم والبحث في مجتمع يعج بالأمية والجهل، هو جريمة قد تتابع عليها ولو معنويا، اذا مررت بالطرقات سمعت الناس يتهامسون عنك، "إنه فلان ابن فلان، لقد درس كثيرا لكنه لم يحصل على شيء" "مسكين فلان ضيع وقته في الأوراق والكتب" " كان عليه أن يفكر في العمل، فما قيمة الدراسة بدون أجر" "كان من الأفضل أن يختار أي شيء حتى شرطيا أو دركيا أو جنديا" نعم دخل قار مضمون خير من الجلوس بدون أجر".

لم أكن ألومهم على همساتهم ومناجاتهم، لكنني لم أكن أحب نظرة الشفقة التي يطالعوني بها، لماذا يتهممون بهمومي، أو بالأحرى يزيدون من همي، فكلما مررت قربهم تذكرت وضعيتي وتخيلت حديثهم وآراءهم واقتراحاتهم السحرية لحل مشاكلي، يا ناس دعوني وشأني، اهتموا بمشاكلكم، ودعوني أغرق في بحر همومي، لا تزيدوا الطينة بلة، دعوني أنسى أنني ضيعت ربع عمري في عمل لن أجني منه إلا النكد والعذاب. أحيانا كثيرة كنت أغبط ذلك الإنسان البسيط الذي لا يعي الواقع وتناقضاته، يذهب الى عمله البسيط صباحا ويعود مساء، دخله محدود وفهمه قاصر، لكنه سعيد، ما إن يضع رأسه على الوسادة حتى يغلبه النوم، أو ربما نام واقفا، كنت أتمنى أن تكون وضعيتي مشابه لحالته، فهي حتما خيرا من أن تكون بين المنزلتين، فلا أنت من المنعمين، الذين قد تحرمهم النعمة لذة النوم، ولا أنت من البسطاء، الذين يستمتعون بالنوم كأنه عسل النحل. حرمنا النعمتين؛ لذة النوم وسعة الرزق. إننا المعذبون في هذه الأرض.

نعم رغم محاصرتهم لي بهمساتهم إلا أنني أجد كل الصواب في كلامهم، فها أنا ذا أتساءل ما العمل؟ ها أنا ذا بعد هذا الجهد والجد في الدراسة والتحصيل أجد نفسي أبحث عن عمل؟؟؟

ابن خالتي لم يتمم دراسته، انقطع عنها مبكرا، أعتقد في السنة الثالثة إعدادي، امتهن التجارة وأفلح فيها جيدا، وهو الآن متزوج ويمتلك سيارة

ومنزلا، وهو أمل العائلة بأكملها ينفق في السراء والضراء. وأنا ماذا أملك؟ شهادة مختومة!!! تبا؟؟؟

ابن جارنا أحمد لم يحصل على شهادة البكالوريا، فاختصر الطريق، وأدخله أبوه الى معهد لتعلم الاعلاميات. ثم توسط له بإحدى الشركات، وهو الآن يأتي في الأعياد يرتدي أحسن الأثواب، ويقود سيارة من نوع رفيع؟ وأنا حصلت على البكالوريا ثم الإجازة والماستر، ولكنني بدون عمل، وبدون مال، ومن لا مال له لا قيمة له في هذا المجتمع المادي، وأرى أن كل الحق معهم، فما قيمة العلم إن لم يوفر لي قوت يومي ويحقق كرامتي؟ هل الشهادة ستطعمني وتوفر لي الصحة والمأوى و... و...؟ تبا؟

أصبحت اليوم أكره الذهاب الى منزلنا، فالأسئلة لا تنتهي، يسألك كل الناس، الصغير والكبير، والنساء والرجال. ألم تجد شغلا بعد يا بني؟ يكفي من الدراسة، افعل كما فعل فلان وعلان فقد اشتغل في الدرك الملكي، والآخر اشتغل في الشرطة. يكفيك من الدراسة يا بني فالزمن أصبح قاسيا. وإلى متى ستظل هكذا؟ متى تنتهي من هذه الدراسة؟

أسئلة كالسيل الجارف تستقبلني كلما ذهبت إلى المنزل. وكانت نظرة والدتي وشفقتها علي وفقر العائلة، كان يزيد الأمر سوء، لذلك قررت البقاء في المدينة.

سمعت زملائي يتحدثون عن مرسوم حكومي يقضي بتوظيف أصحاب الشواهد العليا دون مباراة، لكن ذلك بعد خطوات تبدأ بالنزول الى الشارع بالعاصمة الرباط.

أصبح الاعتصام بشوارع الرباط وأمام قبة البرلمان، أملنا الوحيد، ومرحلة لا بد منها، فتقضي سنتين على الأقل، ترفع الشعارات، وتفر من الشرطة، وتعيش حياة من الهرب والكدر تنتظر فيها فرج 10% من الوظيفة العمومية التي خصصتها الحكومة لأصحاب الشواهد العليا.

كان عدد المدمجين خلال كل سنة يتراوح بين 1300 و 1600 إطار يشملهم الحل. وهو ما يعني أن الدور لن يصلنا إلا بعد سنتين من النضال.

على كل حال اعتصمنا في الرباط، وهيأنا أنفسنا لانتظار سنتين من الزمن، سنتين من عمرنا حتى يصل الدور. فأن تنتظر سنتين خير من أن لا تنتظر شيئا. وأن تنتظر سنتين ثم توظف في السلم الحادي عشر خير من اجتياز المباراة وانتظار عشر سنوات أو أكثر لتصل الى السلم الحادي عشر. هكذا كنا نفكر.

ذهبت مع زملائي إلى الرباط، وجدنا كل المجموعات المعتصمة في الرباط قد أغلقت أبواب التسجيل، وأرسلت اللائحة النهائية الى المستشار المكلف بالتشغيل. لذلك قرر الزملاء إنشاء مجموعة جديدة.

في اليوم الأول من التسجيل بلغ العدد 67 معطلا، و بلغ في اليوم الثاني 240 معطلا. بعدها عقد جمع عام، انتخب فيه مكتب للمجموعة مكون من سبعة عناصر كانت لهم مهام محددة هي، الكاتب العام ونائبه، مسؤول الضبط، ومسؤول الإعلام، أمين المال ثم المقرر والمستشار.

ينتهي موسم النضال في 15 من شهر يوليوز، ولايستأنف إلا في أواخر شهر شتنبر. هكذا وجدنا المجموعات السابقة تفعل ففعلنا مثلهم.

حين عدنا في شهر شتنبر كان باب التسجيل بمجموعتنا لازال مفتوحا. في ذلك اليوم انكبت أعداد هائلة إلى الرباط. فكانت مجموعتنا أكبر المجموعات بالساحة النضالية آنذاك. فقد بلغت 645 معطلا. أعضاء المكتب لم تكن لهم تجربة كبيرة في التدبير والتسيير، فكثرت المشاكل في المجموعة.

تناقضات المجتمع كانت تبرز في المجموعة بشكل واضح، أزمة الثقة والانتهازية، كانتا من المشاكل الخطيرة. لذلك كان يجمع كل أعضاء المجموعة على إسناد مهمة الضبط والمال الى من يحظى بالثقة الكاملة، فالأمين إن لم يكن كذلك سرق مال المجموعة، فقد وقع ذلك في الكثير من المجموعات السابقة واللاحقة، صاحب الضبط إن لم يكن صارما حاسما لا يحاب أحدا ولو كان قريبا أو صديقا، فقد تتسيب المجموعة، ويتغيب الكثير عن الحضور. وهو أمر مرفوض يعرض المتغيب للطرد والإقصاء من المجموعة. ورغم هذا إلا أن التجاوزات كانت تقع، فقد كان مسؤول للضبط في

المكتب الأخير يقبض رشاوي مقابل تسجيل حضور الغائبين. كان قانون المجموعة في التغيبات غير المبررة يفرض غرامة 30 درهما عن كل يوم، وإذا تكررت التغيبات يطرد من المجموعة، فكان المسؤول يأخذ 10 دراهم لنفسه، ويسجل حضورهم. أما أصدقاءه فكثيرا ما غض الطرف عنهم، ولم نكتشف خيانته إلا قبل الحل بقليل، لذلك لم ينل ذلك الخائن عقابه.

مرت الأيام والشهور واعتدنا على أيام النضال وأحواله بالرباط، جدال وشجار، أخبار وإشاعات، آراء واقتراحات، حزن وهم.....

كان التصعيد مع الشرطة عبر الاتجاه الى شبابيك البرلمان أو باب السفارة الذين يعتبران خطا أحمرا لا يمكن تجاوزهما هو ما يخفف من وطأة الصراع والشجار المستمر.

الصمود هو أعلى شكل في الهرم النضالي، ويعني الجلوس وعدم الهرب من عصا وهروات الشرطة، حيث يتجه المعطلون صوب الخطوط الحمراء، وعندما توقفهم الشرطة يجلسون في الأرض ويتشبثون بها رغم الضرب والرفس. لازلت أتذكر أول يوم خضت فيه معركة الصمود، كان مساء يوم الثلاثاء، عندما قررت مجموعتنا الاتجاه صوب باب السفارة والصمود. كانت خطوة جريئة لمجموعة حديثة. كنا متحمسين لها، لم يسبق لمجموعتنا أن أقدمت على هذه الخطوة. انطلقت المسيرة كالعادة من ساحة باب الأحد، مرددة شعارات تعبر عن مطالبنا، كانت مسيرتنا تبدو عادية، وهي من إحدى

مناوراتنا حتى لا تستعد لنا الشرطة. لكنهم كانوا دائما مستعدين، لا ندري كيف يصلهم الخبر؟

كانت الخطة تقتضي أن نجري بأقصى سرعة حين نصل الى ساحة النافورة، حتى نباغت الحاجز البوليسي ونتجاوزه، وبالفعل استطعنا ذلك، ضرب من ضرب، وجرح من جرح، لكن المسيرة استمرت في سيرها متجهة صوب باب السفراء. أحسسنا بلذة الانتصار، فقد تجاوزنا الحاجز الذي وقف عقبة أمامنا أياما عديدة. هكذا كنا نظن. ولكن وبسرعة البرق استطاعت الشرطة أن تضع حاجزا آخر، كان قويا هذه المرة، فعدد الشرطة كثير جدا، اصطدمنا بالحاجز، وحاولنا تجاوزه، لكن ألم الضرب العنيف أوقفنا. فأعلن الكاتب العام عن مرحلة الصمود ودعا الجميع إلى الجلوس، فجلسنا.

في هذا الموقف يظهر الشجعان، وينفضح الجبناء، وما أكثرهم، يجلس الشجعان أمام العصي والضرب وكل أنواع العنف، بينما يبقى الجبناء في الواجهة الخلفية واقفين، خائفين مذعورين. لم أكن ألومهم على جبنهم أو خوفهم أو سميه ما شئت، ولكنني كنت آخذ عليهم كثرة كلامهم ونقاشهم وآرائهم في الجموعات العامة، يناقشون كل صغيرة وكبيرة، كل خطوة إلا ولهم عليها ملاحظات واستفسارات، لكن إذا جد الوطيس خافوا وجبنوا؟

هاجمت الشرطة كوحوش ضارية، أخذت تضرب وترفس وتركل وتشتم وتلعن، وتفعل أي شيء من أجل إزاحتنا عن الطريق. حر العصا وألم الضرب

يجعلنا نتكتل ككرة ثلج، يلتصق الجسد بالجسد، تتعالى الأصوات؛ صراخ الفتيات وصفير الرجال. لكن الشرطة لا تأبه بذلك، فهدفها تفريقنا بأي ثمن. كنا نتشبث بالأرض كجذور الأشجار، فيلجأ أفراد الشرطة الى تفريقنا فردا فردا. يجرونه جرا ثم يرمونه الى جانب الطريق، يرمونه كما يرمون شيء تافها؟ يا للعار!!! الانسان يرمى كما ترمى.... تبا؟

كانوا لا يميزون بين الرجل والمرأة، فكلنا عندهم سواء، نسيء الى الوطن ونشوه صورة البلد باحتجاجنا. هكذا يفكرون، أو هكذا أريد لهم.

ما زلت أذكر شرطيا قبيح الوجه، كان يضربنا بكل عنف، ويجتهد كل الاجتهاد في قمعنا وكأنه في معركة ضارية ضد عدو... صورة ضربه لفتاة بقيت راسخة في ذاكرتي، لم تفعل الفتاة شيء يستوجب تلك القسوة سوى أنها تأثرت بما يقع فرمت الشرطة بسدادة قنينة ماء صغيرة، فقفز فوقنا وانهال على الفتاة بكل ما أوتي من قوة، سقطت الفتاة مغمى عنها. أخذنا جميعا نصرخ من هول ما شاهدنا، حتى بعض عناصر الشرطة تفاجأ. هاجت الجماهير الغاضبة، فتوقفت الشرطة عن الضرب، وانتابهم الخوف. قامت الشرطة بسرعة البرق بإخفاء الشرطي القبيح، حذرونا من محاولة ضربهم، كفوا عن الضرب نهائيا. استعملوا لغة دبلوماسية للسيطرة على الموقف.

سقط العديد من الجرحى، العديد من حالات الإغماء، والكثير من اليأس. اهتمت اللجنة الطبية بالجرحى الذين بلغ عددهم 40 جريحا، خمسة كانت

حالتهم خطيرة، نقلوا الى مستشفى ابن سينا، تلقوا الاسعافات ثم غادروا جميعا إلا الخمسة الذين باتوا في المستشفى ثم غادروا في مساء يوم الغد.

أصبحت الأجواء مشحونة جدا، فاستدعى المستشار المكلف بالوظيفة العمومية أعضاء المكتب للحوار، كان أول حوار سيعقده المكتب بعد وضع الملف.

ذهبت لجنة الحوار إلى المستشار، واستعمل لغة جميلة، لكنها لم تقدم شيئا.

سأله الكاتب: هل يعقل أن يفعل بخيرة أهل البلد هذا الفعل؟ أليس من العار أن يضرب أطر الدولة ومستقبلها بهذه الطريقة البشعة؟ نحن لا نطالب إلا بامر معقول؟ نطالب بحقنا في الشغل الذي كفله القانون. فهل المطالبة بالقانون صارت خرقا له؟

لا لا ينبغي أن يفعل بكم ذلك، فأنا أرفض المقاربة الأمنية على الإطلاق، فأنتم أبناء هذا الوطن، والوطن يحب أبناءه؟

لكننا لم نر إلا الضرب والعنف، فهل الوطن يعبر عن حبه بهذه الطريقة؟

لا أنتم فعلا أطر الدولة، ومستقبلها كما قلت، و قد دعوت إلى فتح تحقيق في النازلة، واذا تبث مسؤولية الشرطة في تعنيفكم فالدولة ستعاقب المسؤولين؟

نعم التحقيقات التي تفتح ولا تغلق أبدا. عبارة تتكرر كثيرا " لقد أمر بفتح تحقيق في الحادث، وفور انتهاء لجنة التحقيق ستتخذ الإجراءات" ولكن شيء من هذا لم يحدث ولو لمرة واحدة. لقد فتحت تحقيقات كثيرة وأنشأت لجان متعددة لتقصي الحقائق، لكننا لم نسمع يوما عن نتائجها، لم نسمع يوما أن مسؤولا رفيع المستوى تم محاكمته بسبب التحقيق. ألست على حق سيدي المستشار؟؟؟

يا بني نحن في دولة المؤسسات، دولة الحق والقانون، والمسطرة تتخذ في حق الجميع، وإذا تبث أن الشرطة استعملت عنفا زائدا أو بدون مبرر فأنا أعدكم أن أنتصف لكم، وأنا شخصيا سأقف بيدي وأتابع لجنة التحقيق أول بأول، فهل يرضيكم هذا؟

نتمنى ذلك...

يا بني نحن جئنا بمقاربة جديدة تقوم على تفعيل روح المشاركة مع مختلف الشركاء، و ترشيد الحكامة الجيدة للرأسمال البشري، وربط المسؤولية بالمحاسبة، ونحن في بداية الإصلاح، هناك أشياء تحققت فعليا على أرض الواقع، يجب أن تعترفوا بذلك، وهناك أشياء كثيرة لازلنا نناضل ونعمل من أجل تجاوزها، نحن نحتاج الى مزيد من الوقت والكثير من الصبر. يجب أن تنخرطوا أنتم أيضا في مسلسل الاصلاح والأوراش الكبرى المفتوحة. بلدنا

جميل، يمتاز بمميزات قل نظيرها – وأنتم تعرفون هذا أيضا– احمدوا الله على نعمة الاستقرار التي يحسدنا الأعداء عليها، حافظوا على وطنكم.

الاستقرار... الاستقرار عندي هو الخبز والطبيب والسكن والعمل والخدمات الادارية العادلة والمتاحة، الاستقرار هو الكرامة...

على كل حال ليس هذا موضوعنا، ماذا عن الحل؟ هل من جديد في الموضوع؟

لا أخفيكم سرا فالخصاص موجود في العديد من القطاعات كالتعليم والصحة، ونحن فعلا في حاجة ماسة إلى بعض التخصصات، ولكن هناك إكراهات اقتصادية مرتبطة بالميزانية وأخرى مرتبطة بتكوينكم؟

ماذا تقصد بتكويننا؟

نحن الآن بحاجة الى بعض الوظائف، لكن تكوينكم لا يناسبها؟

لا يناسبها؟ ومن أنتجنا؟ من المسؤول عن ذلك؟ نحن؟ أم سياستكم التعليمية؟

هذا مشكل كبير لا نتحمل مسؤوليته، وقد نص الميثاق الوطني للتربية والتكوين على ربط الجامعة بالشغل، ونتمنى أن تطور الجامعة ذلك.

حسب علمي فإن قطاع التعليم وحده قادر على أن يوظف الجميع، أضف الى ذلك قطاع الصحة وباقي القطاعات.

كما قلت سابقا، الخصاص موجود، لكن المشكل ليس في المناصب الشاغرة، بل في غياب المناصب المالية، فالدولة غير قادرة على الإنفاق أكثر على القطاعات العمومية.

وقادرة على تبذير أموالنا في مهرجانات الرقص والغناء والتهريج.

انتبه لكلامك، فالدولة ليست تعليم وصحة، فتلك المهرجانات تقدم أدوارا مفيدة للوطن والمواطن، فهي تعرف بإمكانيات المغرب الثقافية والفنية، وتجلب السياح، وتقدم فسحة ترفيهية وفرجة للمواطن، وانظر الى الإقبال الذي تحظى به. جماهير كبيرة تحج من كل صوب.

قال في نفسه: أي وطنية هذه التي تنفق بلا حساب على الغناء والرقص، وشبابها يعيش عطالة قاتلة؛ إنها حقا وطنية عرجاء عوجاء.

على كل حال ما ذنبنا نحن اذا كانت الدولة تعاني من ضائقة مادية؟ هل نبقى بدون عمل؟

لا، لكن لا بد من الانتظار، فنحن نعمل على خلق سياسة استراتيجية تحد من أزمة البطالة على مستوى المدى المتوسط في أفق القضاء عليها في المدى البعيد.

إذن سننتظر خمس عشرة سنة لكي نعمل؟ وربما لا؟

كما قلت فلدينا فريق متخصص منكب على دراسة سياسة تشغيلية تنطلق من الجامعة، عبر خلق إجازات مهنية وتكوينات تساهم في إدماج الشباب في سوق الشغل بسلاسة. بالإضافة الى تشجيع الشباب على خلق المقاولات الصغرى والمتوسطة، ودعم مشاريعهم وأفكارهم. فالقطاع العام لا يمكن أن يدمج كل من حصل على شهادة؟ لذلك لابد من تشجيع الشباب إلى الولوج الى القطاع الخاص وخلق المبادرات. لا يمكن للدولة ان تستوعب الجميع. فهل العمل موجود فقط في الدولة؟

يا سيدي المستشار، اعذرني فهذا الكلام قد سمعناه كثيرا، ومنذ مدة طويلة، ولازالت دار لقمان على حالها، لم يتغير شيء. أما بخصوص القطاع الخاص، فبالله عليك سيادة المستشار لو كان يوفر لنا شغلا كريما يحفظ حقوقنا، ويصون كرامتنا، أكنا سنلجأ الى الشارع، ونعيش حياة اليأس اليومي، والخوف المستمر والمطاردة الهوليودية من طرف شرطتكم في الشارع وكأننا مجرمون، أو تجار مخدرات؟ أكنا سنرضى بهذه الوضعية الدنيئة لو كانت هناك بدائل في القطاع الخاص؟ سيدي المستشار لن تجد فردا واحدا يهوى ما نفعل، بل نحن مضطرين لا مختارين وصدق الشاعر حين قال:

وما باختيار تسليت عنك ولكنني مكره لا بطل.

هذا في ما مضى أما الآن فالحكومة عازمة على إيلاء القطاع الخاص أهمية بالغة، فهو الحل لكل مشكلات البطالة، لذلك فقد تم تعزيزه بجملة من القوانين التي ستحفظ حقوق الأجير وصاحب العمل.

"حقوق الأجير قال، بل تحصنون مكاسبكم وتدافعون عن مصالحكم"

يا سيدي أنت تعرف أن القطاع الخاص غير مهيكل، ورغم ما قيل عن القوانين، ومدونة الشغل إلا أنها لا تبارح مكانها، أما الواقع فشيء آخر، ظلم وتعسف، أجر هزيل وحرمان من أبسط الحقوق، وتهديد بالطرد إذا احتججت أو عارضت رب العمل. فهل بعد هذا العمر الطويل الذي قضيناه في الدراسة تريد منا أن نخوض تجربة نحن نعلم نتائجها مسبقا؟ الكثير منا سبق وأن عمل بالقطاع الخاص، وذاق حلاوته المرة.

على كل حال فقد استمعت اليكم و تسلمت ملف مجموعتكم، ونتمنى أن يشملكم الحل في هذه السنة.

انتهى الحوار بدون نتائج، وبدا واضحا أن الغرض منه هو امتصاص غضب الجماهير المعطلة، وكبح لجامها. وفعلا نجح في ذلك.

ألفنا ساحة النضال وأجواءها. ننزل الى الشارع ثلاثة أيام في الأسبوع، الثلاثاء والأربعاء، والخميس. تطاردنا الشرطة أحيانا، وتعنفنا تعنيفا شديدا أحيانا أخرى، وتتركنا نحتج دون قمع ما دمنا لا نتوجه الى الخطوط الحمراء.

قال شرطي لزميل "قد نستعمل الرصاص الحي اذا ركبتم رأسكم وتوجهتم الى المناطق المحظورة ".

شجار ونزاع، اتهامات بيننا، أخبار واشاعات عن الحل النهائي لواقع البطالة. نسمع كلاما كثيرا، وكله يدور حول العمل، نستيقظ على العمل وننام عليه، حتى أحلامنا وكوابيسنا كلها حول العمل والوظيفة. نتخيل القطاعات المناسبة التي سنعمل بها، كل منا له طموح، وميول لقطاع معين، الكثير منا يحب قطاع التعليم، ربما لأنه القطاع الوحيد الذي فيه نوع من الحرية في العمل، فلا سلطة لرئيس مباشر أو مسؤول مصلحة. أما أنا فلم يكن لي ميول لقطاع معين، المهم ألا أظل عاطلا وعالة على أسرتي التي ضحت بالكثير من أجلي، كنت أحب أن أرد لها جميلها، وهي أيضا كانت تحب أن تراني كريما بالشغل. الشغل هو الكرامة، به يحفظ الإنسان ماء وجهه، يقدره الناس وتصير له قيمة اعتبارية في المجتمع. هذا ما كنت أريد.

كان لي زميل يريد أن يعمل بقطاع الصحة، لا لشيء إلا أنه يحب أن يقدم المساعدة للناس ولأسرته، كثيرا ما تعرض للظلم والقهر. اصطحب أمه ذات يوم إلى المستشفى الإقليمي، كانت في حالة يرثى لها، تحتاج الى عناية فورية، فاصطدم بعالم مجنون، وواقع مرير، طلبوا منه أن يعيدها بعد شهر، فالطاقة الاستيعابية للمستشفى لا تسمح باستقبالها، فاضطر الى أخذها الى عيادة خاصة. عولجت الأم بعد مدة، لكن علاجها كلف أموالا لم تكن الأسرة

قادرة على تسديدها، فتضامن الجيران والأحباب والعائلة مع الأسرة الفقيرة المكلومة.

بعد أن انجلت الأزمة، قال له أحد الأقارب لو اتصلت بي لما وصلنا الى هذه الحالة، فأنا أعرف شخصا له نفوذ قوي في الكثير من الإدارات، فقط قدم له "قهوته" ولتكن زرقاء وكل أغراضك تقضى... تألم صديقي كثيرا لهذا الحال، ما هذا العالم المجنون الذي لا يرحم؟

عاد مرة أخرى الى نفس المستشفى، لكنه هذه المرة مع ابن أخته الذي لم يكن يتجاوز السنتين، أصابته حمة شديدة، جعلته يفقد الوعي، حملوه بسرعة على متن السيارة في ساعة متأخرة من الليل، استقبلوهم هذه المرة، لكن للأسف الشديد لا يملكون الحقنة التي يحتاجها الصبي، اضطر أن يغادر الى مدينة أخرى لينقذ الطفل، هذه المرة ذهبوا مباشرة الى مصحة خاصة، فحالة الطفل، لا تحتاج الى المماطلة.

شفي الطفل الصغير بعد مدة، لكن آلام تلك المعاملة تركت جروحا غائرة في قلبه. كان يقول أنه اذا اشتغل في هذا القطاع على الأقل سيضمن مصالح أسرته وأقاربه.

مر على نزولنا الى الشارع أكثر من سنة ونصف، نسمع فيها نفس الكلام، ونفعل نفس الأمور، خبر هنا وإشاعة هناك، كر وفر، ضرب وتعنيف، بدأ اليأس يدب في نفوسنا. إلى متى سنستمر على هذا الحال؟

يسألني أهلي وأفراد العائلة ماذا تفعل في الرباط؟ فأجد صعوبة وحرجا في الإجابة!!! ماذا أفعل في الرباط؟ هل أعمل؟ أم عملي هو البحث عن العمل؟

جربنا جميع الوسائل ورفعنا سقف أشكالنا الاحتجاجية دون نتيجة تذكر، لا يتحرج المسؤولون في هذا البلد من وضعنا البئيس، يبحثون عن حجج واهية يقنعون بها أنفسهم، ويتكلمون بها مع الإعلام والرأي العام،. البطالة ظاهرة عالمية، حتى أمريكا والدول المتقدمة تعاني من هذه الظاهرة، ليس هناك بلد يخلو منها، إنها ظاهرة عالمية. يقفون عند "ويل للمصلين" حتى أمريكا تعاني من البطالة. نعم ولكن العاطلين عن العمل يتقاضون أجرا على ذلك.

أحيانا أجالس نفسي، وأفكر وأتساءل معها: هل كان بإمكاني التفكير في السياسة ومناقشتها، لولا الشارع والاعتصام به؟ هل كنت سأتعرف على النضال وإيجابياته لولا العطالة؟ طبعا لا، فقد كانت السياسة بالنسبة لي أمرا تافها، والاهتمام بها مضيعة للوقت. وها أنا ذا أمارسها رغما عني، بل أدركت أنه إن لم تمارسها مورست عليك. هذه هي الحقيقة.

هذه القضايا أصبحت تناقش داخل المجموعة، فسنة ونصف من النضال دون جدوى أمر ليس بالهين. بدأ الموقف السياسي من الواقع يجد طريقه الى المجموعة. تدخل أحد الأطر ذات مرة فقال:

لقد مر على نزولنا الى الشارع وقت طويل كما تعلمون، سنة ونصف ضاعت من عمرنا، ونحن لا نطالب إلا بحق مشروع، وقد جربنا جميع الوسائل والأشكال، ولم نجد من المسؤولين إلا سياسة واحدة: ضرب وتعنيف ولغة خشبية لا تسمن ولا تغني من جوع...

إذن ماذا تبقى لنا؟ هل نستسلم ونعود إلى عائلاتنا الذين ضحوا بالغالي والنفيس من أجل تعليمنا؟ هل بعد هذا العمر من الدراسة نبحث عن فرص ضائعة؟ أم ماذا نفعل؟

فرد الجميع بشعار نضالي: "ودعنا العائلات إما التوظيف أو الممات"

اعتقد أنه حان الوقت لزيادة جرعة قوية في نضالنا!!!

اندهش الجميع: ماذا تقصد بجرعة قوية؟ فأنت تعرف أننا جربنا جميع الوسائل المتعارف عليها في ساحة النضال. هل هناك أشكال لم نجربها؟

قال: نعم. هناك وسائل قوية قد تفي بالغرض، لكن ليست في الأشكال بل في الخطاب.

ماذا تقصد بالخطاب؟

أجيبوني أولا ما هو مطلبنا؟

الإدماج الفوري والشامل في الوظيفة العمومية، قالوها وهم ينظرون إليه نظرة تعجب واندهاش، فالسائل والمسؤول يعلمان بالجواب.

نعم الإدماج الفوري. ومن سيدمجنا؟

كلنا نعرف جواب هذا السؤال فلماذا تسأل عن أمور بديهية؟ قل ما تريد دون مماطلة

نعم أعرف لكن رجاء أجيبوني. أريد أن أصل الى شيء مهم.

الحكومة هي من ستدمجنا. وماذا بعد؟؟؟

كان الكل على أعصابه، لم تعد لهم طاقة للتحمل، أو رغبة في الاستماع، أو ثقة في أحد. شباب يائس عاطل. فقط نظرة بسيطة في وجوههم ستخبرك بهذه الحقيقة.

ولماذا لم تفعل ذلك إلى يومنا هذا؟ ولماذا نضطر إلى النضال من أجل العمل؟؟؟

لأن سياسة الدولة والحكومة فاشلة في التشغيل، ونحن ضحية فشل برامجها

هذا ما أريد أن أصل إليه " سياستها فاشلة".

وماذا بعد؟ ما الجديد في ذلك؟

مطلبنا مطلب اجتماعي، لكنه نتيجة سياسة فاشلة. إذن لماذا لا نحاكم هذه السياسة الفاشلة؟

نحاكمها!!! كيف ذلك؟ ونحن لا نستطيع.

بل نستطيع إن شئنا؟؟؟

ماذا تقول؟؟؟

نسقطها ونطالب بحكومة غيرها؟

نسقطها!!! ماذا تقول نسقط الحكومة؟؟؟

نعم نسقطها، وبذلك فقط نصل إلى مطلبنا؟

قال أحدهم: أعتقد أنك فقدت عقلك. هل تريد أن تدخلنا الى السجن؟

ضحك الكثير من هذا الموقف، ورفع له شارات النصر الكثير أيضا تأييدا له في دعوته. لكنه يبقى تأييد بالقول دون الفعل. فالخوف من السلطة وما قد تفعله بنا كان يجري فينا مجرى الدم. نعلم الحقيقة، لكن الخوف يجعلنا ننكرها. فمن السهل على السلطة أن تقذف بك في السجن، ثم تبحث لك عن تهمة في ما بعد، وما أكثر التهم،. التجمهر في مكان عمومي دون ترخيص، إهانة موظف أثناء مزاولته مهامه، إعاقة السير العام...

انتهت هذه الزوبعة بانتصار الخوف والانتهازية، وخفت صوت المطالبين بإسقاط الحكومة نتيجة فشلها في تشغيلنا...

وعاد نضالنا الى أيامه الرتيبة المملة، والمؤلمة، نزول الى الشارع وترقب للحل.

كانت المجموعات التي قبلنا ولها الحظ الكبير في أن يشملها الحل، قد خففت من نضالها في الأسابيع الأولى من شهر ماي، الذي دام كله انتظار وترقب. اعتادت الحكومة أن تعلن عن الحل في هذا الشهر في السنوات الأخيرة، لذلك عندما يحل هذا الشهر تكثر الإشاعات، فتسمع: قد يفرج عن الحل اليوم أو بعد غد. قال لنا أحد المسؤولين الكبار: إن الحل سيتم الإعلان عنه يوم الأربعاء المقبل. لقد سمعت الخبر من مصدر موثوق يؤكد تاريخ الإعلان عن الحل، قال لنا مصدر رفيع المستوى... هذه هي أجواء الساحة. إنها صعبة و قاسية جدا. الانتظار والاشاعة هما أسوء ما فيها.

أعلن عن الحل في الأسبوع الأخير من هذا الشهر وشمل 1300 منصب شغل. لم يشمل مجموعتنا الحل، لكننا أصبحنا في مقدمة المجموعات، والعمل أصبح مسألة وقت لا إلا. لذلك فإن نضالنا في السنة المقبلة يتغير من حيث أهدافه، فالرهان كان فقط على تسريع وقت الإعلان عن الحل.

3

استفاد حميد كثيرا من تجربته السابقة بعد حصوله على البكالوريا، "فالمؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين". لن يعيش نفس التجربة مرة أخرى، لن يكون مفعولا به، لذلك قرر أن يرسم طريقه بجهده وعمله وتخطيطه، فهو من يصنع التاريخ ويقترح نفسه عليه.

هذا ما علمتني الحياة، ودربتني الجامعة. كنت أعرف أن الطريق لن يكون مفروشا بالورود في بلد كهذا. لذلك اتخذت من الآية " واقصد في مشيك" شعارا في التدبير، لم أكن أفهم وصية لقمان الحكيم لابنه فهما نصيا سطحيا، بل القصد في كل شيء، في الخطوات التي سأتخذها، والأعمال التي سأنجزها، في أفكاري وأحلامي، كنت أرفض أحلام اليقظة التي يتحقق فيها كل شيء ببساطة ودون عناء. كنت أقول لنفسي:

لا تتخذ خطوة أنت تجهل نتائجها، بل ينبغي أن أتوقع النتيجة مهما كانت، سيئة أو جيدة. مقبولة، أو غير ذلك.

نعم سأحصل على الإجازة هذه السنة، وأعلم علم اليقين، أن الشركات لن تتسابق على كسب ودي، كما أن الوظائف لن تطرق بابي، ما لم أطرق بابها طرقا. لم تكن تجربة مصطفى تغريني، فهي تجعل خياراتي محدودة في قطاع التعليم، بل سأوسع من خياراتي لتشمل البحث عن العمل في جميع

القطاعات، المهم أن يكون شغلا كريما في أجره، وشكله ونوعه. وإذا لم أنجح في الحصول على العمل، فإنني سأستكمل دراستي، ولن أقف عند الجامعة فقط، بل سأبحث في المعاهد أيضا. قد يرفضوني؟ نعم أعلم ذلك. لكنني لن أخسر شيئا إن حاولت مجددا. لن استسلم، لن أجعل اليأس يطرق بابي، سأتحدى المستحيل، سأصنع من نفسي بطلا يقاوم العقبات ويحرر الثغور، من أجل الوصول الى النصر، وأي نصر هذا؛ إنه نصر من أجل الخبز، من أجل لقمة العيش.

هكذا أصبح يفكر حميد، أمل متجدد ونجاح يصنع رغم قساوة الظروف.

انتهى الموسم الدراسي وحصل على ميزة مقبول، كاد يحصل على ميزة مستحسن، غير أن نتيجة السنة الأولى خذلته. ميزة غير مرغوبة، لكنها في شعبة الفلسفة كانت كافية لاجتياز مباراة في التدريس.

انتظر حميد هذه المباراة بفارغ الصبر، لكن الوزارة لم تعلن عنها في هذه السنة، وعليه أن ينتظر السنة المقبلة لعلها تعلن عنها هذه المرة. رغب في استكمال الدراسة، فراسل ست جامعات فتحت تكوينات الماستر في شعبة الفلسفة، فلم يوفق. لذلك اضطر إلى الخطة الثانية، أو الخطة "ب" كما كان يسميها: التسجيل في شعبة الإدارة والتسيير بالتكوين المهني، وذلك ليحصل على دبلوم مهني يقوي فرص الشغل. وهذا ما نجح فيه.

اخترت شعبة الإدارة والتسيير، لأنها كانت متناسبة مع تكويني، كما أنني كنت أسمع عن آفاقها وكثرة فرصها. قضيت في هذا التكوين سنتين، كانت متعبة وقاسية، ورغم ذلك كانت مفيدة. كانت حريتنا في المعهد شبه مقيدة، وكم كان صعبا أن أتقبل هذه الوضعية بعد أن ذقت طعم الحرية في الجامعة، فنمط التدريس مغاير تماما لما ألفته في الكلية، فهو شبيه بالمرحلة الثانوية، كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الأكثر توظيفا في التدريس وكان زادي منها محدودا فاغتنمتها فرصة لاكتساب هذه اللغة.

انتهت السنتان، وحصل حميد على الدبلوم بميزة مستحسن، بالإضافة إلى شهادة التدريب من شركة مشهورة. أحس حميد بالفرحة والسعادة بهذا الإنجاز. رغم أنه يعلم أن الحصول على دبلوم وشهادة مهما كانت قيمتها، لا يضمن العمل، بل لابد من معركة أخرى اسمها البحث عن العمل.

أعد عدته وما يلزم وشرع في معركة البحث عن العمل. كان يعتبر أن دبلومه الجديد سلاح جيد في معركته، وسيفتح له أبواب كثيرة، كالسكرتارية، وتسيير بعض الأقسام أو الإشراف عليها، أو المصالح الوزارية والإدارية...

في صباح اليوم التالي استيقظ باكرا ، فهو ليس كباقي الأيام، إنه يعول عليه كثيرا في تحديد مصيره المهني، وتحقيق استقراره العاطفي والاجتماعي والنفسي. تناول فطوره، وأعد ملابسه إعدادا جيدا، كان يعلم أن المظهر له دور مهم في هذه المهن، لذلك حرص أن يكون أنيقا. قبل هذه اللحظة لم يكن

يهتم كثيرا بالمرآة، لكنه اليوم أكثر منها، ولم يكتف بها، بل سأل أصدقاءه عن اختياره وأناقته، قال لهم: كيف أبدوا؟

إنك رائع. نراك مديرا أو رئيس قسم.

كفاكم مجاملة وأخبروني بصدق.

لقد سمعت رأينا يا حميد. وأنت تعلم صدقنا، فنحن نراك فنانا في اختيار الثياب والألوان، فهي منسجمة ومتناسقة، من أين لك هذا؟

(يبتسم يحميد) حقا؟

نعم. بل حتى لو جاء متخصص في الألوان والملابس لما اختار أفضل منك.

لقد أكثرتم في المدح، فاقتصدوا أخشى أن اغتر بذلك وأحسب نفسي .... (ثم أطلقوا جميعا ضحكة كبيرة). على كل حال شكرا لكم.

نحن لم نقل إلا الصدق.

أعلم ذلك شكرا لكم مرة أخرى.

ثق بنفسك يا حميد، فإن كانوا يريدونك، وهم في حاجة الى خدمتك فلن يهتموا بمظهرك.

ربما ما تقوله صحيح. لكنك تعلم أنني لست الوحيد الذي تقدم لهذه المباراة، فغيري كثير.

بالتوفيق يا حميد، ونأمل أن تعود إلينا سعيدا.

آمين.

على هذا التشجيع ودع حميد أصدقاءه، خرج من المنزل قاصدا الشركة. أخذ سيارة أجرة، واتجه الى شارع الحسن الثاني. طلب من السائق أن يتوقف بالقرب من النافورة. كانت الشركة قريبة منها. صعد الدرج ثم وجد نفسه في قاعة الاستقبال التي وجد بها فتاة جميلة.

السلام عليكم

وعليكم السلام. مرحبا هل من خدمة. قالت ذلك والابتسامة لا تفارق شفتيها.

نعم. أنا طالب حاصل على دبلوم في الإدارة والتسيير وأرغب في العمل.

هل لك سيرة ذاتية؟

نعم ها هي، وهذه نسخة مصادق عليها من الشهادة.

ونسخة من البطاقة الوطنية

نعم هاهي.

حسنا هذه معلوماتك، فإن احتجنا إليك سنتصل بك.

لو سمحت أريد أن أقابل المدير من فضلك؟

المدير؟

نعم.

ألك موعد معه؟

لا

أتعرفه؟

لا

ألك توصية من أحد؟

لا

ابتسمت الفتاة، ثم قالت للأسف لا يمكن، فالمدير له التزامات كثيرة، وكما قلت لك سنتصل بك إن احتجنا اليك.

خرج حميد وهو يجر وراءه ذيل الخيبة والانكسار. "رقم هاتفك معنا، سنتصل بك إن احتجنا إليك" عبارة سمعها كثيرا، لذلك لم يتفاجأ بها. اتجه بعد ذلك الى شركة أخرى، لم تكن بعيدة عن الأولى. قام بنفس العملية وتلقى نفس

الأجوبة. ألح على مقابلة المدير لكن دون جدوى. استطاع في ذلك اليوم وضع ملفه عند سبع شركات دون مقابلة المدير.

في اليوم الثاني قام بعملية تمشيط لكل الشركات الموجودة في المدينة، ولم يترك واحدة إلا وضع ملفه عندها. لم يكن باستطاعته أن يذهب الى الشركات الموجودة في المدن البعيدة، فزاده المادي لا يسعفه، لذلك قرر مراسلتهم عبر البريد الالكتروني.

بعد أسبوعين من الانتظار اتصلت به ثلاث شركات دعته لمقابلة المدير. أحس حميد بانبعاث الأمل من جديد. قال محدثا نفسه: يا سلام ثلاث شركات ضربة واحدة، سأختار أفضلها أجرا ومعاملة. مسكين، هكذا كان يفكر. لم يكن يعلم أن هذا الاختبار هو مجرد انتقاء أولي ضمن لائحة من المدعوين والمدعوات، وما أكثرهم.

في اليوم الموعود وصل حميد قبل الثامنة، وقد ارتدى أحسن الثياب، وتزين بأفضل زينة. انتظر وصول المدير، لكنه تأخر كثيرا عن موعده، ربما كان ذلك مقصودا، فما أصعب الانتظار في هذه اللحظات، يتمدد الزمن فتصير الدقيقة ساعة، الانتظار أقسى العقوبات النفسية.

كانت الساعة تشير الى الثامنة إلا الربع عندما فتح رجل الأمن باب الشركة، بعدها بدأ الموظفون يصلون إلى الشركة. على الساعة الثامنة رن

جرس لم يدري حميد مصدره وغرضه. توجه إلى قاعة الاستقبال، عرف بنفسه وغرضه. أخذت منه الفتاة بعض الأوراق، ثم وجهته إلى قاعة الانتظار.

كانت القاعة كبيرة ومملوءة بالكراسي، في وسطها طاولة، فوقها مزهرية وبعض المجلات التي تتحدث عن الأزياء وآخر المستجدات، مجلات ذات مواضيع نسوية تتحدث عن اللباس والجمال، لم تستهويه، لكنه كان مضطرا لها حتى يملأ الفراغ. بعد مدة دخل ثلاثة مدعوين، كلهم ذكور. ثم تبعهم خمس فتيات دفعة واحدة، ثم سبعة، فأربعة... ثم توقف عن العد. انتابه إحساس غريب يوحي أن فرصته في العمل ضعيفة مع وجود كثرة الفتيات.

كانت الشركة ترغب في توظيف خمسة عشر موظفا، وكانت اللائحة قد بلغت ستة وثلاثين مدعوا. ومعنى ذلك أن واحدا وعشرين منهم سيرفضون.

وصل المدير بعد التاسعة والنصف، أمر السكرتيرة بإخبار المدعوين بالاستعداد. ثم دعا مسؤولا آخر كان نائبه ليعينه في العملية حتى ينتهي منها بسرعة. علم حميد أنهم كانوا يريدون عشر فتيات وخمسة فتيان فقط. كان عدد الفتيات عشرين، والفتيان ستة عشر. تساءل حميد عن هذه القسمة الضيزى. لماذا عشر فتيات، بينما نحن خمسة فقط؟ لماذا يفضلون الفتيات عنا؟ أهم أكثر كفاءة وجدية؟ لا أعتقد ذلك. فما أعلمه أن الكفاءة والجدية ليستا مقرونة بجنس. إذن لماذا هم وليس نحن؟ ألأنهما أكثر صبرا وخضوعا؟ ربما نعم، وربما هناك أشياء أخرى؟

بدأ المدير ونائبه في العملية، لم يكن يتأخر كثيرا في جلساته مع المتبارين، كانت المدة تتراوح بين خمس دقائق وخمس عشرة دقيقة إن أطال.

جاء دوره بعد طول انتظار. استقبله النائب، بينما المدير استقبل فتاة، لا يدري هل من سوء حظه أم من حسنه؟

قال له النائب قدم نفسك؟

اسمي حميد حصلت على الإجازة في شعبة الفلسفة، ثم بعدها على دبلوم في الإدارة والتسيير، وقمت بتدريب في الشركة الفلانية مدة ستة أشهر كاملة.

جيد. إذن أنت فيلسوف

لم يكن ينتظر هذا الجواب. لكنه تمالك نفسه وتحدث حديث الواثق من نفسه. أنا طالب مجاز في شعبة الفلسفة فقط، قالها بابتسامة طريفة.

حسنا. ما يهمنا نحن هو شهادتك في الإدارة والتسيير. أخبرني عن الإدارة.

الإدارة فن وعلم.

(يضحك) ألم أقل لك أنك فيلسوف؟ كيف تكون فنا وعلما في نفس الوقت؟

علم لأنها تخضع إلى ضوابط وقواعد مبنية على الحق والواجب. وفن لأنها تحتاج الى مرونة وليونة وكياسة وسياسة في التدبير.

(يضحك مرة ثانية) لقد أتبث أنك فيلسوف حقا. قل يا حميد لماذا اخترت العمل معنا؟

هناك اعتبارات كثيرة، أهمها أنني اذا عملت في شركتكم فسأزاول تخصصي، وهذا سيساعدني على الإبداع وتقديم الجديد، ومن جهة ثانية الحصول على أجر كريم.

هل لك فكرة عن الأجر الذي ستتقاضاه؟

لا. لست أدري.

ما مقدار الأجر الذي يناسبك؟

أجر يحفظ لي كرامتي؟

كم يبلغ هذا الأجر الذي يحقق الكرامة؟؟؟

أنت تعلم يا سيدي أن الحياة تحتاج الى مصاريف، والعمل معكم يحتاج الى الأناقة وملابس مناسبة. المبلغ الذي يحقق هذه الأمور فهو جيد.

هل سبق لك أن شاركت في مظاهرة أو احتجاج؟

مظاهرة أو احتجاج؟ وما علاقة هذا بذاك؟

أجد لغتك نقابية؟

لقد سألتني فأجبت بعفوية وتلقائية، هذا كل ما في الأمر.

نعم. شكرا على مجيئك. حسنا تفضل.

خرج حميد وهو يعلم أنه مرفوض، تأمل في الفتاة التي كانت في مقابلة مع المدير، فوجدها مستبشرة، علم من ملامحها وابتسامتها أن قبلت، ثم تأكد عندما توجهت إلى قاعة الانتظار لاستكمال باقي إجراءات التشغيل. أما من رفض فيهبط من الدرج ثم إلى الشارع، ثم حيث لا يدري أحد.

أعاد حميد النظر في الفتاة فوجدها إيمان زميلته في الدراسة. يا إلهي هل هي فعلا إيمان؟؟؟ نعم إنها هي، كل ملامحها تشير الى أنها هي. كيف تقبل إيمان التي بالكاد نجحت وحصلت على الدبلوم، وأنا الذي حصلت عليه بميزة، وكنت ثالث الثلاثة الذين حصلوا على هذه الميزة أرفض؟ أليس هذا الأمر غريبا؟ هل أخطأت في المقابلة؟ وفي ما أخطأت؟؟؟ ربما حديثي عن الكرامة والأجر، والعلم والفن لم يعجبه؟ ربما؟ ولكن أين العيب في ما قلت؟ أليس الأجر هو الكرامة؟ هل كان ينبغي أن أبدي علامات الخنوع والرضى وأقول له. نعم يا سيدي ما تفضلتم به هو ما استحق؟؟؟ لا لست أنا من يفعل ذلك، لن أكون ذليلا لأحد، لن أستجدي أحدا، سأعبر عما أريد، وأفرض شروطي منذ البداية، فمن صحت بدايته أشرقت نهايته، نعم قد يتأخر العمل، وقد أرفض مرة ثانية، لكنني لن أبيع نفسي مقابل دريهمات. الكرامة هي كل ما

أملك، هي أملي، فلن أفرط فيها من أجل العمل. آه على معركة العمل!!! إنها معركة ضارية لا مكان فيها للسذج والضعفاء...

قد يكون حميد فعلا قد أخطأ في بعض الأمور في المقابلة، لكنه حتما لم يرفض لهذا السبب أو ذاك، وإنما لأن الشركة لا تريد إلا خمسة فتيان وهم ستة عشر.

ذهب الى الشركة الثانية والثالثة فوجد نفس البروتوكولات، استقبال وانتظار للمدير، ثم حوار قد يطول أو يقصر، ثم شكر على المجيء الذي كان بمثابة إعلان ظريف عن الرفض.

أحس حميد بالملل والضيق، سنة كاملة وهو يبحث عن عمل دون جدوى، طوال هذه المدة لم يكن يرى في أنصاف الحلول حلا لمعضلة العطالة، كان يقول " أن أظل أبحث عن العمل خير من تضييع جهدك في أعمال لا تجني منها سوى الجهد والتعب". لكنه الآن مضطرا أن يشتغل في أي عمل مهما كان أجره زهيدا. كانت عائلته فقيرة جدا، لذلك توقف تمويلها مبكرا، بل كانت تنتظر عمله من أجل الدعم والمساعدة، فهو أملها ومستقبلها الذي تفتخر وتتسلى به.

كانت أمه تدعو له بالتوفيق في كل صلاة، تريد أن ترى ابنها سعيدا وكريما بعمله، لأنها كانت تعلم حجم المعاناة التي يكابدها ابنها. لم يكن يهمها فقرهم، فقد اعتادت عليه، إنما همها ابنها، فأن يفرح ابنها كأنما فرحت هي.

ما أجمل الأم ! عظيمة في كل شيء، في حبها بدون حساب ولا انتظار لمقابل، في تضحياتها التي لا تعد ولا تحصى، إنها مستعدة أن تضحي بنفسها وبكل ما تملك من أجل أبنائها، في عاطفتها الجياشة التي تمنحها اهتماما دائما بأبنائها، حتى وإن كبروا وصار لهم أبناء. ما أعظمك يا أم.

ضاقت بحميد الدنيا، أصبح كئيبا حزينا مهموما، بدأ يفقد بعضا من شجاعته وعزيمته، فقرر أن يبحث عن أي عمل، المهم ألا يبقي للفراغ فرصة النيل منه. اشتغل في البداية في متجر متوسط الدخل يبيع المواد الغذائية، بمبلغ 250 درهم في الأسبوع. يبدأ العمل منذ الساعة الثامنة صباحا ولا يعود منه إلا بعد التاسعة ليلا، لم تطل مدته في هذا العمل فثمنه لا يشجع، ومعاملة صاحبه سيئة. ثم عمل في متجر آخر بإحدى باحات الاستراحة. قضي به مدة ستة أشهر. لم يتقاضى شيئا في الشهر الأول فقد اعتبر تدريبا؟؟

كان العمل بالمتجر مريحا مقارنة بالتجربة الأولى، والأجر حدد في 2300 درهم عن كل شهر، لكنه لم يحصل عليها في أي شهر، فقد كانت الشركة تقتطع لهم في كل شهر من أجرهم ثمن السلع الضائعة، التي لا يعلمون كيف ومتى ضاعت؟

في كل شهر كانت هناك سلع ضائعة، يجدونها في المراقبة والمحاسبة، يبذلون أضعافا مضاعفة حتى يسلم راتبهم من الاقتطاع لكن دون جدوى، ثم

اكتشفوا في النهاية أن محاضر السلع يتم تزويرها، لذلك قرر حميد البحث عن عمل آخر.

كان العمل هذه المرة في شركة صغيرة للحليب، يبدأ العمل من الثامنة صباحا وينتهي مع الرابعة والنصف، كان أجرها جيدا مقارنة مع ما مر به من تلاعب بالأجور والكرامات.

أخذ حميد يتقلب في المهن بحثا عن عمل قار وكريم لكن دون جدوى، لم يكن النحس يطارد حميد وحده، بل طارد معظم شباب هذا البلد.

منحة و محنة

1

نجح مصطفى في امتحان المدرسة العليا للأساتذة، سعد سعادة كبيرة بهذا النجاح، ثم قضى سنة كاملة من التكوين النظري والعملي بمدينة مكناس، العاصمة الإسماعيلة. كان التكوين شاقا، فالدراسة طيلة الأسبوع، صباحا ومساء، بالإضافة إلى كثرة العروض والمحاضرات التي ينبغي حضورها أو المشاركة فيها.

انتهى الموسم التكويني رغم ما فيه من مشاق، وحصلت على شهادة التخرج بامتياز. كنت سعيدا جدا بهذا الإنجاز، فبوادر النجاح قد بانت تفاصيلها، والأمل انبعث من جديد، لذلك لم أكن أشعر بألم التكوين، فهو مجرد لحظات ستنقضي، ثم أصير مربيا ومعلما للأجيال، وفوق ذلك سأحصل على أجر أضمن به استقراري، لن اضطر إلى العائلة لسد نفقاتي، بل هي من ستحتاج لدعمي، آه ما أجمل اليوم الذي أقدم فيه لأمي هدايا من مالي، و أساعد أبي في مصاريف البيت، وأقدم المعونة للإخوة الصغار الذين لازالوا يتابعون دراستهم. إن دراهمي وإن كانت قليلة فإنها كافية لسد حاجياتهم البسيطة. سأكون أمل العائلة وفخرها، إنني المنقذ من ظلم الفقر والقهر والعوز والحاجة، ستكون يدي مبسوطة للفقراء، سأقدم لهم المساعدة ولو بشق تمرة.

كنت أحس بفرحة شديدة تغمرني، فلم أعد طالبا، لقد صرت أستاذا، كانت سعادتي تزداد أكثر عندما أتلقى التبريكات والتهاني الكثيرة من أصدقائي وأقاربي، عندما كانوا ينادوني بالأستاذ، أحس أن سنوات الدراسة لم تذهب سدى. وأنسى كل ما وقع وتعرضت له من مشاكل في دراستي، كنت أنسى أيام الجوع التي قضيناها بالجامعة. كنت مع ثمانية أصدقاء في دار واحدة، كلنا ننتمي إلى عائلات فقيرة، لذلك عندما تتأخر الدولة – ودائما كانت تفعل– في صرف المنحة كنا نعاني كثيرا. أحيان كثيرة لم نكن نتناول إلا وجبة واحدة في اليوم. لازلت أتذكر تلك الأيام المريرة. كانت وجبتنا الوحيدة تتكون من الشاي والحرشة فقط، نتناولها في المساء. استمر الحال على هذا مدة ليست بالقصيرة. عندما عدت إلى منزلنا كان وجهي شاحبا ووزني قد انخفض كثيرا. لكن الآن هذه المعاناة لم تعد إلا ذكريات أليمة وجميلة في نفس الوقت، بل سعادتي تنبثق من ألمها.

كان علينا بعد أن اجتزنا مباراة التخرج أن نوقع محضر الالتحاق بالاكاديمية الجهوية التي سنتعين بها. لكن قبل ذلك كنا ننتظر قرار التعيين بفارغ الصبر. انتظار مملوء بالأمل والألم، ألم الانتظار وأمل الاختيار. كنت أرغب ألا يبعدوني كثيرا عن مقر سكناي، لذلك اخترت جهة الغرب شراردة بني احسن أولا، ثم الجهات المحيطة والقريبة منها ثانيا، ثم الأقرب فالأقرب. وكنا سمعنا أن التعيين سيكون جهويا، أي أن كل أستاذ سيعين في جهته.

وقد كثر الحديث عن هذا القرار حتى صار يقينا عندنا. فاطمأن قلبي. ثم جاءت العاصفة القاصفة... أرسل لي صديق رسالة هاتفية قال لي فيها بعبارة حزينة "انظر هؤلاء المساخيط أين عينونا؟؟؟"

تفاجأت بهذه الرسالة المفجعة، حركت هاتفي وأجريت اتصالات كثيرة، اكتشفت فيها أن الكثير من زملائي تم تعيينهم بالجهات الجنوبية، لم يؤكد لي أحد صحة تعييني. قال لي أحدهم أنني تعينت بجهة كلميم السمارة، لكنه لم يكن متأكدا. كان علي أن أتأكد بنفسي فانتقلت في الصباح إلى الشبكة العنكبوتية. فقطعت الشك باليقين، ووجدت نفسي ضمن لوائح جهة كلميم السمارة.

تفاجأت كثيرا بهذا التعيين، فلم أكن أنتظره ولا أتخيله، لأننا كثيرا ما سمعنا أن تعييننا سيكون جهويا، ثم أنني لا أعرف شيئا كثيرا عن مدن الجنوب، سوى كلام عام عن الصحراء وما تستفيد من خيرات.

كان علينا أن نذهب إلى مدينة كلميم في شهر غشت، بعد أن تم الإعلان عن تعييننا، كان ذلك أول سفر طويل قمت به، سفر سأقضي فيه ليلة كاملة قبل أن أصل في الصباح إلى المدينة، كنت متوجسا من هذا السفر كثيرا، فلم يسبق لي أن تجاوزت مدينة الدار البيضاء.

كان لي أصدقاء كثر تم تعيينهم بنفس الجهة، فأخذ أحدهم المبادرة – وكانت له تجربة في السفر الطويل– نسق مع سائق حافلة تنطلق من محطة

"القامرة" بالرباط ومتجهة إلى مدينة طان طان، كانت تمر في طريقها على مدن كثيرة من بينها مدينة كلميم.

حجز لنا مقاعد بالحافلة في اليوم المعلوم. عددنا تجاوز العشرين أستاذا. كان ثمن الحافلة 180 درهما. لم تنطلق الحافلة في وقتها المحدد، بسبب شهر رمضان، لذلك تأخرت ساعة عن موعدها، ثم انطلقت مباشرة بعد تناول وجبة الإفطار. مرت الحافلة بمحطات كثيرة أولها الدار البيضاء، ثم مراكش ومدينة شيشاوة التي تناولنا فيها وجبة السحور وأخيرا مدينة أكادير.

كان السفر شاقا جدا، حاولت مرارا النوم، لكنني لم أستطع. كنت أغفو أحيانا، لكن ألم القدمين والركبتين والرقبة كان يوقظني.

وصلنا الى مدينة كلميم قرابة السابعة صباحا، توجهنا مباشرة الى مقر الأكاديمية الجهوية الذي لم يكن يبعد كثيرا. وجدنا جمهورا من الأساتذة الذين قدموا من مناطق شتى.

انتظرنا مدة من الزمن ثم جاء الموظفون، وبدأت عملية ملأ محضر الالتحاق بالأكاديمية الجهوية. كنا نملأ خيارات التعيين بالأكاديمية التي لم تكن كثيرة، خمس نيابات فقط؛ كلميم وطانطان وطاطا وأسا الزاك ثم السمارة. كل الأساتذة وضعوا مدينة كلميم وطانطان ضمن الاختيارات الأولى، إلا القليل منهم.

أحسست بالخيبة وضياع الوقت. كل هذا من أجل ملأ ورقة نعلم يقينا أن نتائجها محسومة، ألم يكن من الأجدر أن نملأها إلكترونيا، ونتفادى ذلك السفر الطويل، الذي ضاع فيه المال والجهد؟

انتهت تلك العملية مبكرا، أعتقد مع الساعة العاشرة صباحا، لا نستطيع العودة مباشرة الى مدننا، فقد كنا مرهقين كثيرا، خاصة أننا في شهر رمضان، ثم أن معظم الحافلات بالجنوب لا تسافر إلا ليلا. لذلك كان علينا أن ننتظر الساعة التاسعة ليلا حتى نسافر في نفس الحافلة التي جاءت بنا.

قمنا بجولة صغيرة وخاطفة حول المدينة، اكتشفنا أنها صغيرة الحجم، لكنها جميلة بهدوئها وطيبتها، سألنا عن ثمن الفنادق، فتفاجأنا كثيرا بثمنها المناسب جدا. وجدنا فنادق بثلاثين درهما لليلة، وخمسين وستين درهما. كانت الفنادق الرخيصة مناسبة لوضعيتنا المادية الضعيفة.

رغم ثمنه الرخيص مقارنة مع فنادق الداخل[3]، إلا أن جودة غرف الفندق كانت جيدة. لم نكن ننوي المبيت بالمدينة، بل فقط الاستراحة من تعب السفر.

تناولنا فطورا جماعيا، ناقشنا أشياء كثيرة، ضحكنا، تبادلنا أرقام الهواتف، تواعدنا على استمرار الاتصال والنضال.... ثم عدنا الى "أرض الوطن".

سألتني أمي بعد العودة: كيف كانت الرحلة يا مصطفى؟

[3] مصطلح شائع في الجنوب عن المدن الداخلية كالدار البيضاء والرباط والقنيطرة.

متعبة جدا.

لابأس إن كان فيها مصلحة.

أي مصلحة يا أمي؟ إنها رحلة تافهة؟

تافهة؟ لماذا سعادة الأستاذ يقول هذا الكلام؟ لماذا هذا التشاؤم يا بني؟

فعلا إنها كانت تافهة، ما قمنا به لم يكن يستحق تلك الرحلة الطويلة؟ ثلاثة أيام يا أمي من أجل دقيقة، أليس ذلك تافها؟

دقيقة ! ماذا تقول؟

لقد ملأنا استمارة الرغبات في دقيقة أو أقل؟؟؟

انتبه لكلامك يا بني. فقيمة الأشياء لا تقدر بطول الزمن أو قصره، فتلك الدقيقة هي التي ستحدد استقرارك ومقر عملك؟

نعم أعرف ذلك؟

لكنني سمعت أشياء كثيرة ومتواترة تفيد أن تلك الاستمارة ليس لها تأثير؟

أطرد الأفكار السلبية من ذهنك يا بني فأنت في بداية الطريق.

حسننا يا أمي سأفعل.

كنت أحس بالإحباط نتيجة هذه الرحلة التي اعتبرتها فاشلة، أسبوع كامل وأنا أشعر بالعياء الشديد، كل شيء في جسدي يؤلمني، ركبتاي، عنقي،

وظهري، أربع عشرة ساعة متواصلة وأنا أرتدي الحذاء ثم بعد ذلك نملأ استمارة في دقيقة ونعود أدراجنا. أليس هذا ظلما؟

بعد شهر من محضر التحاقنا، أفرج عن النتائج، كانت النتائج شبه محسومة، نسبة قليلة تعينت بكلميم ثم طانطان، والباقيات الصالحات عينوا جميعا بباقي النيابات الأخرى. عينت بمدينة طاطا. فكان لابد من رحلة ثانية الى طاطا قصد ملأ استمارة الرغبات بالجماعات. كنت أعرف الكثير من أصدقائي الذين عينوا بنفس النيابة، نسقنا بيننا ثم أخذنا الحافلة المتوجهة الى المدينة، كانت تنطلق من مدينة الرباط بعد الساعة الرابعة.

لم تكن لي تجربة كثيرة في مجال السفر، ولم يكن في علمي أن السفر في المسافات الطويلة يقضي الحجز المبكر حتى نضمن الأماكن المتقدمة، لأنها هي الأكثر راحة أو هكذا نظن. حجز لي ولصديقي أيام الجامعة أحد الزملاء. كان ثاني سفر لي طويل جدا، بعد تجربتي الأولى إلى مدينة كلميم. انطلقت الحافلة بعد الساعة الرابعة. كل الأمور كانت تبدو جيدة، رغم أنني كنت في المقاعد المتأخرة، إلا أنني لم أحس بالعياء في البداية. وفجأة أخذت الحافلة تتوقف مرات متكررة قبل أن نصل الى مدينة الدار البيضاء. علمت أن هناك خللا ميكانيكيا بالحافلة، توقفنا بمحطة الشركة، ثم جاء مسؤولا ومعه ميكانيكي، قام بأشياء، ثم انطلقت الحافلة، حمدنا الله عز وجل وقلنا أن العطب التقني تمت معالجته لذلك لا خوف، ثم إن الحافلة تنتمي الى شركة

لها اسمها في النقل. هكذا طمأنا أنفسنا. بعد ذلك توقفت الحافلة بباحة الاستراحة قرب مدينة السطات، حسبنا في البداية أنها استراحة اعتيادية، ثم نستأنف سيرنا، لكن الحقيقة شيء آخر. مرت ساعة، ثم ساعتين ولم يخبرنا السائق شيئا. أخذنا نتساءل، بحثنا عنه، فلم نجد سوى مساعده الذي لم يكن يقدم أو يؤخر شيئا، كان يقول كلمة واحدة: لقد صبرتم كثيرا. قلت له بعد أن تأكدنا أن الحافلة معطلة ولا يمكن السفر بها: هل سترسل الشركة حافلة أخرى؟

قال: لقد صبرتم كثيرا؟

يا أخي أنا لا أسألك عن صبري، فلا نملك غير ذلك، إنما أسألك عن الحافلة؟؟؟

لقد صبرتم كثيرا.

هل تستفزنا بكلامك هذا.

لا. لكنني لا أملك معلومة تفيدكم غير أنكم صبرتم.

انتهى الحوار مع المساعد دون نتيجة، علمنا أنه لا يعلم شيئا، أو يعلم ولا يريد أن يخبرنا مخافة احتجاجنا. بدأ اليأس يدب في نفوسنا، قضينا خمس ساعات متواصلة، لا نعلم متى نسير، كانت أعصابنا مشدودة، غضب وعياء. كثر الكلام والاحتجاج دون نتيجة، قال أحدهم إنهم سيرسلون حافلة أخرى

وهي قادمة، وستصل مع الواحدة ليلا، قالها وهو متيقن من كلامه، لكن مرت الواحدة والثانية والثالثة، ولم تصل الحافلة إلا بعد التاسعة صباحا، ليلة بأكملها قضيناها بباحة الاستراحة ننتظر السراب الذي قد يأتي. كانت معنا امرأة لها أخ محام، اتصلت به وأطلعته على ما جرى، ثم جاءتني لأحدث أخاها. لا أدري لما اختارتني أنا بالضبط، ربما لأنني كنت أكثر المسافرين تذمرا واحتجاجا. طلب مني أخوها، أن أسجل رقم الحافلة، وكل المعطيات المتعلقة بها وحادثة التأخير حتى نقاضي الشركة التي لم تف بالتزاماتها اتجاهنا. قلت له: نعم سأفعل.

كانت الحافلة تضم ركابا من مناطق شتى، الكثير منهم يتكلمون اللغة الامازيغية. ما أثارني هو ذلك الحديث الذي كانت تتحدثه تلك المرأة عن شجاعة مغاربة الداخل، قالت " لو كان معنا عرب في هذه الحافلة لاحتجوا كثيرا على الشركة، فسكاننا مسالمون يميلون للسلم والهدوء" فقلت في نفسي لماذا دائما نصدر عجزنا الى الآخر البعيد عنا؟ لماذا هذه الاتكالية المقرفة؟؟؟ يتحدث أهل الجنوب عن شجاعة الداخل؟ والداخل يتحدث باعجاب قل نظيره عن ما يفعله الريف والشمال، وهكذا.

أقلعت الحافلة الجديدة بعد التاسعة صباحا بسائق جديد. كانت الرحلة شاقة جدا، فقد كان مقدرا لنا أن نصل مع الساعة الثامنة صباحا أو قبلها بكثير، لكننا لم نصل إلا بعد الساعة السابعة مساء.

وصلنا الى مدينة طاطا، فاستقبلتنا حرارتها المرتفعة والجافة. كنت قد سمعت أشياء كثيرة عن المدينة، فقد سألنا عن أجوائها وأحوالها بعد أن علمنا أنها مقر عملنا. فسمعنا الكثير عنها، قالوا: إنها مدينة بعيدة، وحرارتها مرتفعة، كل شيء فيها رخيص، المواد الغذائية والألبسة والأطعمة، ومواد البناء... إنها مدينة صحراوية تستفيد من دعم الدولة للمناطق الصحرواية..... وسمعت أشياء كثيرة تتعلق بالعادات والتقاليد... لكنني عندما أقمت فيها اكتشفت أن لا شيء صحيح مما قيل عنها، غير أنها بعيدة وحرارتها مرتفعة جدا. أما ما قيل عن انخفاض الأثمنة في جميع المواد فعلى العكس تماما، كل المواد تعرف زيادة في أثمنتها مقارنة مع مدن الداخل.

استضافنا أحد الأساتذة، كان من معارف صديق لي. يكتري الأستاذ دارا متواضعة، تتكون من بيتين صغيرين ومطبخ ومرحاض، يبدو واضحا من طريقة بنائها وتجهيزها أنها قديمة، أبواب الغرف بالية، وصباغة باهتة تظهر عليها كتابات وخربشات غير منتظمة، أعادتني هذه الدار الى أيام الجامعة، أيام الكراء المشترك. دور الطلبة لها نسمة خاصة، رغم أنها خالية من كل تجهيز إلا أننا دائما يشدنا الحنين إليها، لا ندري على وجه التحديد ما الذي يدعونا الى تذكرها باستمرار والرغبة فيها، ربما اللحظات الجميلة، والآمال الحالمة التي كن نأمل ونحلم أن نحققها هي التي تعيدنا إلى الماضي، وربما

سحر الماضي الذي يجعل الإنسان يسترجع الذكريات بالكثير من السعادة، حتى وإن كانت أليمة؟؟؟ وربما أشياء أخرى....

شعرت بالعياء الشديد بعد تلك الرحلة الطويلة، لكن مع ذلك لم أستطع النوم بفعل درجة الحرارة المرتفعة جدا. نمنا بسطح المنزل لأنه هو المكان الأقل حرارة. السطح ضروري جدا في هذه المدينة ، فهو ما يستغيث به السكان في فصل الصيف.

في الصباح توجهنا إلى مقر النيابة التعليمية التي لم تكن تبعد كثيرا عن دار صديقنا الجديد، بل إن المدينة بأكملها صغيرة جدا، وتستطيع أن تقوم بجولة سريعة بأهم أحيائها ومرافقها الخدماتية في مدة وجيزة.

وجدت العديد من الأساتذة الجدد الذين قدموا لنفس الغرض، كنت أعرف الكثير منهم، ووجدت أيضا بعض الأساتذة القدامى النقابيين الذين يساعدون الأساتذة الجدد في اختيار الجماعات المناسبة. ذكرني هذا الموقف بأيام التسجيل بالجامعة، عندما كنا نستقبل الطالب الجديد، الذي يأتي إلى الجامعة ولا يعرف الكثير عنها، فيجد منا كل الدعم النفسي والمعرفي. آه على تلك الأيام...

لم أكن أعرف شيئا عن الجماعات الكثيرة التي ينبغي لنا أن نختارها، فكل المعلومات مصدرها الأساتذة النقابيين. كان معيار إدراج جماعة ضمن الاختيارات الأولى هو قربها أو بعدها من مقر النيابة بطاطا. الكثير منا وجد

صعوبة حتى في قراءة أسماء الجماعات فجل أسمائها أمازيغية. على كل حال ملأنا الاستمارة ثم عدنا أدراجنا. وبعد عشرين يوما تم الإفراج عن تعيننا بالمؤسسات، ووجدت نفسي في جماعة تبعد عن طاطا بأزيد من 140 كيلو مترا.

كانت الدراسة تنطلق رسميا في الخامس عشر من شهر شتنبر، لكنهم لم يعينونا بالمؤسسات إلا بعد هذا التاريخ بأيام. عدت مرة أخرى في رحلة طويلة، لكنها هذه المرة دون مشاكل، ذهبت الى النيابة واستلمت قرار التعيين فأفاجأ بقرار آخر اسمه " تكليف بمهمة".

استلمت القرارين يوم التاسع عشر من شهر شتنبر، وفي اليوم الموالي توجهت إلى الجماعة التي عينت بها في الصباح الباكر جدا، فليس هناك وسائل نقل كثيرة غير حافلتين، الأولى تنطلق مع الرابعة صباحا، والثانية تنطلق مع الواحدة زوالا. وصلت إلى الثانوية مقر تعييني، ملأت محضر الالتحاق بالمؤسسة، ثم انتقلت مباشرة إلى قرية تبعد عن الجماعة بثلاثين كيلو مترا، حيث كلفت بالتدريس في مؤسسة أخرى بدعوى أنني "فائض". لم أجد في المؤسسة سوى المقتصد. لا وجود للتلاميذ أو الأساتذة و لا المدير. استقبلني المقتصد وقدم لي محضر الالتحاق ثم ساعدني حين أوصلني بدراجته النارية إلى القرية، فالمؤسسة تبعد عن الدوار بأزيد من ثلاثة كيلو مترات ولا وجود لي وسائل النقل.

في آخر أسبوع من شتنبر ستستأنف الدراسة بشكل محتشم، حضر كل الأساتذة والقليل من التلاميذ. سأعلم في ما بعد أن المناطق النائية لها ظرفية خاصة، فالتلاميذ أول من يغادر وآخر من يلتحق بسبب أوضاع اقتصادية واجتماعية، كما أنهم كانوا دائما يستفيدون من عطل غير رسمية قبل وبعد العطلة.

كل الأساتذة التحقوا بحجرات الدراسة، إلا أنا. قال لي المدير: أنني فائض، وله ما يكفي من الأساتذة في المادة.

قلت له: ماذا سأفعل إذن.

نحن في حاجة إلى إداريين، فكما ترى ليس لدينا إلا حارس عام واحد، أرجو أن تعيننا في ذلك، ووضعيتك الإدارية أنا سأتكفل بها.

النيابة هي من أرسلتني إلى هذه المؤسسة.

حسننا انظر الى بنية المؤسسة. أخرج الكثير من الأوراق، والقوانين والمذكرات التي تنظم الحياة المدرسية وتحدد الفائض وكيفية تدبيره. وجدت كلامه منطقيا. فالمؤسسة فعلا ليست في حاجة إلي لأن لها ما يكفي من الأساتذة في شعبتي.

قلت له وما العمل الآن.

أن تعيننا في الإدارة

لا يمكنني ذلك، فأنا أستاذ متدرب ومتابع بمباراة الكفاءة، لذلك لا يمكنني قبول الإدارة.

لن أفرض عليك شيئا، لكنك ستظل فائضا إلى أن يشغر مكان في أي جماعة وترحل إليه

لابأس. سأنتظر وأرى ما يحدث.

كنت مستاء جدا من هذا الوضع الذي يكشف الخلل الإداري في تدبير الموارد البشرية، وغياب التخطيط ودقة المعطيات.

مر أكثر من أسبوعين وأنا أتردد بشكل يومي إلى المؤسسة لأعلم الجديد عن وضعيتي. كل يوم آت في الصباح، أقضي ساعة أو ساعتين ثم أعود من حيث أتيت.

كانت المؤسسة تبعد عن القرية بأزيد من ثلاثة كيلومترات. كنت أقطعها مشيا على الأقدام في جو شديد الحرارة. وضع كهذا يشعرني بالملل والضجر. وكان المدير يفاوض أستاذا آخر له أقدمية بالمؤسسة في شعبتي حول التكلف بمهام إدارية، فقبل الأستاذ بعد مفاوضات طويلة مليئة بالاستعطاف والمدارات. قبل الأستاذ إذن، فأسند المدير أقسامه لي. ثم دخلت الى القسم وقابلت التلاميذ في الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر.

كنت في مضى أسمع عن مشاكل التعليم، أما الآن فأنا أعايشها عن قرب، وإذا تحدث عنها فإنما يتحدث شاهد من أهلها.

انطلق الموسم الدراسي بمؤسستنا بعد مخاض عسير، انطلق الموسم والمؤسسة تتخبط في جملة من المشاكل أكثرها خطورة غياب أستاذة الفرنسية التي لم تلتحق بعد أن عينت معنا، أو بالأخرى تدخل لها متدخل وغير لها التعيين.

ظل الكثير من التلاميذ بدون مادة الفرنسية بعد أزيد من شهرين. في هذه المدة لم تتحرك النيابة، ولا المجتمع المدني أو السلطات العمومية أو المنتخبة لإيجاد حل، حتى خرج التلاميذ في إضراب محتجين عن هذا الوضع. بعد ذلك تحرك الجميع ليخرجوا بحل ترقيعي يسكتوا به التلاميذ فقط. المهم هو أن الدراسة انطلقت، لكن كيف ومتى؟؟؟ هذا لا يهم؟؟؟

بعد شهر من العمل بالمؤسسة والتعرف على الأساتذة والإداريين، اكتشفت أن جمعية أجنبية أهدت المؤسسة مجموعة من الدراجات الهوائية قصد توزيعها على التلاميذ الفقراء الذين يأتون إلى المؤسسة مشيا على الإقدام. لكن الإدارة امتنعت عن توزيعها وبقيت مسجونة بالمؤسسة لمدة ثلاث سنوات. ساعني الخبر كثيرا، ولمت الأساتذة القدامى على مشاركتهم في هذا العمل الشنيع بصمتهم. كان قد التحق معي ثلاثة أساتذة لهم نفس الجرأة، فقررنا مناقشة الموضوع مع المدير. أعجب الأساتذة القدامى بشجاعتنا. طلبنا عقد

الاجتماع، وفعلا تم ذلك، وبعد نقاش عسير استجاب المدير فكونا لجنة تختار التلاميذ المعوزين. ثم وزعت الدراجات في حفل بالمؤسسة.

كانت المؤسسة لا تنتهي من مشكل حتى تدخل في آخر، فهي حديثة العهد، لم يمض على إحداثها إلا أربع سنوات، ومع ذلك تعاني من غياب مرافق كثيرة، كقلة الطاولات في الأقسام وغياب الماء الصالح للشرب و في المراحيض أيضا. كنت في أحيان كثيرة أجلس ثلاثة تلاميذ في مقعد واحد، فلم يكن لدي خيار آخر.

وعندما نخرج من المؤسسة فإنه يتعين علينا قطع ثلاث كيلومترات مشيا على الأقدام، لأن المؤسسة بنيت في مكان بعيد عن القرية، لا يوجد فيه شيء غير أراضي شاسعة وقاحلة تتخللها شجرة شوكية يسمونها ب" الطلح".

سكنت بالدوار بمفردي في دار كبيرة جدا، إلا أن صاحبها لم يمنحني إلا مفتاح بيت واحد. كنت أنام على إيقاع خربشات الفئران وما لست أدري. وذات يوم وجدت ثعبانا كبيرا جدا. حسبته في البداية قطا. كان قد نزل من السطح الى سقف البيت الذي يتكون من الأعمدة والقصب والحصير. ثم أخذت أتأمله فقلت في نفسي إن ذيل القط يكون هابطا، لكن هذا ذيله مستقيم وغليظ. ثم رميته بحجرة صغيرة حتى أتأكد منه، فلم يتحرك، ثم رميته بحجرة أكبر من الأولى فهرب الثعبان.

لم تكن تأتي الخضر والفواكه الى الدوار إلا يوم الثلاثاء والجمعة، وإذا لم تبادر في الصباح الباكر لن تجد شيئا تشتريه. كان هناك سوقا أسبوعيا يقام يوم الخميس، لكنه يبعد عن الدوار بثلاثين كيلو مترا. ووسائل النقل محدودة. أما اللحوم فليس هناك إلا دكانين يبيعان الدجاج فقط. ومن حسن حظنا أنه كان بالقرية فرن للخبز، لكن إذا تأخرت بعد السادسة فستبيت جائعا.

2

قضيت أربعين يوما كاملة بالقرية، منذ التحاقي إلى عطلة عيد الأضحى. عدت إلى المنزل بعد هذه المدة التي كانت قاسية جدا، ومليئة بالمغامرات.

كانت الأسرة تنتظرني بفارغ الصبر، تنتظر عودة ابنها الذي صار أستاذا، صار موظفا في الدولة، إنها قيمة كبيرة في المتخيل الشعبي. وكنت أنا أيضا أنتظر هذه الرحلة السعيدة كثيرا، فقد ضاقت الدنيا بي في أيامي الأولى بالقرية. لكن هذه الفرحة لم تكتمل، فقد كنت كغيري من الأساتذة الجدد لازلنا لم نتقاضى شيئا. إننا موظفون مع وقف التنفيذ.

كنت مضطرا في هذه الفترة أن أقترض كل شيء ، الكراء، والمأكل والمشرب والملبس وأموال السفر. ثم جاء الفرج في شهر مارس، حصلت على أجرتي بعد طول انتظار، فرحت كغيري من الموظفين بهذا الأجر "الكبير" الذي لم أقبض مثله أو حتى ربعه في حياتي. إنه شيء جميل أن تصير لك أموالا. ستصبح مسؤولا عن نفسك وغيرك. لكن فرحتي كانت قصيرة، فقد وجدت أن نصف الأجرة قد اقترضته، وأصحاب الدين ينتظرون أن أرجع لهم دينهم. قال لي أحد الأساتذة القدامى مهنئا بحصول على أول أجرة: يجب أن تصور تلك الأموال للذكرى؟

لماذا أصورها؟

ابتسم ابتسامة خفيفة ثم قال: لأنك لن توفر مثلها مرة أخرى.

لماذا يا أخي أنت متشائم إلى هذه الدرجة؟

حسنا أنا متشائم ستذكر قولي ذات يوم، وتقول قال لي فلان كذا وكذا.

كان الأستاذ يتكلم عن تجربة فأجر الأستاذ في وطننا الحبيب هزيل جدا، لذلك يصعب عليه توفير أموال كثيرة في مدة قصيرة.

معاناتي مع الأجرة لم تنتهي بحصول على الأجرة الأولى، فقد كان علينا أن نقوم بعملية إدارية أخرى، سبق وقمنا بها في المركز، علينا أن نملأ مطبوع تحويل الأجرة، ثم يوقعه المدير ثم يرسل إلى الرباط. حتى تمر أجرتنا مباشرة إلى رقم الحساب في مؤسستي البنكية، وقبل هذه العملية كنت أحصل على أجرتي بصيغة الحوالة التي لا تصل إلا بعد مرور عشرة أيام من الشهر في أحسن الأحوال. بعد ذلك علي أن أتوجه إلى الخزينة لأصرف أجرتي. وقبل هذه المدة كان علي أن أتعامل مع صاحب الكراء والمصاريف الأخرى.

وحتى أتفادى التأخير عبر السلم الإداري، ذهبت بالمطبوع بنفسي إلى الرباط، بعد أن ملأت المطبوع ووقع عليه المدير، وتوجهت إلى المكتب المتخصص في هذا الملف، وقد صحبت معي ملفات بعض زملائي. وجدت في المكتب رجلا يبدو عليه ملامح الجد والوقار. أخذ مني الملفات، تفقدها واحدة واحدة، حتى يتأكد من أن كل شيء على ما يرام. ثم ودعني.

أحسست عندها أنني حققت إنجازا عظيما، وعالجت مشكلا كبيرا، كان يسبب لي الإحراج مع الكثير من الناس.

لما عدت الى العمل سألني الزملاء عن ملفاتهم، فأكدت لهم أنني وضعتها في المكتب المتخصص، وقد قال لي المسؤول بالحرف الواحد" أنه سيرسلها مباشرة الى "مكتب تحويل الأجرة" وتسوية ملفنا هي مسألة وقت لا إلا. اطمأن الزملاء وأنا معهم أيضا. ثم جاءت أجرة الشهر الموالي الى حساب كل زملائي، إلا أنا. تفاجأت كثيرا. لقد وضعتهم جميعا بيدي؟ ما الذي وقع؟ هل هناك خطب ما بملفي؟ أم ماذا؟ حاولت أن أستفسر، لكن المعلومة مفقودة والبحث عنها يحتاج الى معركة. فاضطررت إلى أن أعيد ملفا آخر. ثم أرسلته هذه المرة عبر السلم الإداري، ليقطع الملف المسكين رحلة طويلة تبدأ من المدير وتمر من النيابة والأكاديمية الجهوية وتنتهي بمديرية الموارد البشرية.

أرسلت الملف في بداية شهر يناير ولم يصل إلا في نهاية شهر مارس، ومع ذلك لم يعالج، فاضطرت الى البحث عن واسطة تحل المشكلة الكبيرة؟؟؟ سألت صديقا لي هل يعرف أحدا بالموارد البشرية، فدلني على أحدهم. ثم سلمني رقم هاتفه. اتصلت به وأخبرته بما جرى. ثم سألت عن رقم الإرسال الخاص بالملف حتى يسهل عليه تتبعه. بحث فوجد أن الملف فعلا قد سجل في مكتب الضبط، ولكنه لم يعالج.

قال لي رجل الموارد أن الحل الوحيد هو أن أعيد ملفا آخر، يوقعه المدير ثم أسلمه له مباشرة في الموارد البشرية.

لماذا؟ ألم يصلهم الملف؟

بلى لقد وصل، لكن الملفات كثيرة جدا ولا أستطيع البحث فيها، فذلك يستغرق أياما، فهناك أكثر من ألف ملف لم يعالج.

حسنا سأهيء ملفا آهر. فقمت بالعملية للمرة الثالثة، ثم استغليت العطلة الربيعية، وذهبت إلى الموارد البشرية، التقيت بالرجل الفاضل وسلمته الملف. وفي الشهر الموالي حُولت أجرتي الى حسابي البنكي.

في هذه المعركة اكتشفت أن هناك أزمة كبيرة في الإدارة، مرتبطة بالإنسان الذي يحتاج الى إعادة النظر في سلوكه وأخلاقه.

فهمت من رجل الموارد البشرية أن الشخص المكلف بمكتب تحويل الأجرة لا يقوم بواجبه، وحتى إن لم يشر هو إلى ذلك فطريقة تعامله مع ملفي تؤكد أنه إنسان مهمل، أو ربما يعمل بمفرده...

3

حاولت أن أتعايش مع وضعي الجديد في القرية، فليس لنا حل آخر إلا أن نتعايش مع الظروف ونصبر على عنائها، فقد كنت أوصي صاحب محل المواد الغذائية الذي كان يبيع الخضر والفواكه يوم الإثنين أن يترك لي مقدارا منها، وعندما أعود من العمل بعد الساعة الثانية عشر آخذ حاجياتي بعد أن أؤدي ثمنها. ما كان ينسينا معاناتنا هو الطيبوبة واللطف والكرم الذي يتميز به الكثير من سكان القرية. كان رجلا يقيم وليمة "الكسكس" كل يوم الجمعة، والدعوة عامة لكل الموظفين والمارة. وكان يحرص ويكرر دعوة الأساتذة الجدد إلى الوليمة.

كنت قد أخذت أرقام هواتف أرباب سيارات الأجرة التي كان عددها ستة. حتى إذا رغبت في السفر اتصلت بأحدهم واستفسرت عن السيارة المسافرة حتى يحجز لي مقعدا ضمن ركابها، هذه هي الطريقة الوحيدة لتضمن الرحلة إلى الوجهة التي تريدها، أو تبرمج سفرك مع أوقات الحافلة التي كانت تذهب صباحا مع الساعة السادسة، ومساء مع الساعة الرابعة فقط.

لم يلائمني مناخ المنطقة الذي كان ذا حرارة شديدة وجافة، ورغم أن شدة البرودة منخفضة مقارنة مع المناطق الداخلية، إلا أنها سببت لي مشاكل مرضية لازلت أعاني من أعراضها الى يومنا هذا. لم أشعر بخطورة المناخ إلا بعد أن مرضت بسبب البرد، مرضا جعلني أشعر باقتراب الأجل كثيرا،

حرارة مرتفعة، وسعال مستمر وسيلان أنف. كل هذا سببه البرد الذي أصابني عندما كنت أخرج في الليل إلى المرحاض التي كانت بالخارج، كنت لا أصل إليها إلا وقد غزا البرد غزوته الكبرى، وحاز على كل المغانم. ظللت أسبوعا كاملا وأنا على هذا الحال، حاولت استعمال بعض الوصفات الطبيعية التي يشير بها الأصدقاء، كالحليب الساخن الممزوج مع السكنزبير والبيض، وزيت العود وأشياء أخرى لا أذكرها.

التداوي بالأعشاب لازال له دور مهم في المنطقة، وكثيرا ما يجدي نفعا. لكن حالتي لم تزدد إلا سوءا، وبلغت وضعا حرجا جدا. زاد من حدة الوضع وقسوته أنني كنت أسكن بمفردي وبعيد عن العائلة، عن الأم الحبيبة التي كانت تقدم لي في مثل هذه اللحظة كل العناية، لا تترك شيئا قد ينفع إلا تفعله، ما أجمل الأم، ليس هناك أروع وأجمل وأفضل وأكرم وألطف وأرقى وأنقى وأبقى وأصفى وأزكى وأعلى من الأم، تجوع من أجل أن يشبع ابنها، وقد تتألم ليشفى ابنها، وتحزن حبا في ابنها، إنها الأم وكفى.

لذلك اتصلت بصديق لي كان قديما جدا بالمنطقة، وطلبت منه أن يوفر لي سيارة تقلني إلى أقرب مدينة يوجد فيها الطبيب، مهما بلغ ثمنها. كانت المدينة تبعد عن القرية بأزيد من ثمانين كيلومترا. من حسن حظي أن صديقي وجد سيارة أجرة ذاهبة إلى المدينة وتحتاج إلى مسافرين فقط.

بلغنا المدينة بعد الساعة الثانية زوالا، وانتظرنا وصول الطبيب الذي لم يتأخر كثيرا، بمجرد ما أن شاهدني حتى عبر عن وضعي الصحي. دخلنا إلى عيادته. قام بفحوصات اعتيادية. بعد ذلك قدم لي وصفة من الأدوية وطلب مني ألا أذهب إلى العمل لمدة أسبوع كامل، وأكد على ضرورة ذلك.

لم تحقق الوصفة التي قدمها لي الطبيب ما كان مرجوا منها، فاتصلت به مرة ثانية، ووصف لي وصفة أخرى. ورغم أنني لم أتعافى كليا في الأسبوع الموالي إلا أنني كنت مضطرا للذهاب إلى العمل وإجراء فروض المراقبة الأخيرة للدورة الأولى التي لم يبق لها إلا أسبوعين بالتمام والكمال.

كنت أسائل نفسي وأتأمل في وضعي، كم يستحق هذا المدرس الذي يأتي من مناطق بعيدة جدا، يقطع مسافات طويلة وكأنه يسافر رحلة الشتاء والصيف، ويستقر في ظروف أقل ما يقال عنها أنها صعبة للغاية، ثلث أجرته يستهلكه السفر، ألا يستحق تعويضا ماديا ومعنويا اعترافا بالتضحية التي يبذلها؟ كيف يعقل أن يتساوى في الأجر بين من يعمل في ظروف تتوفر فيها كل شيء، ومن يفقد فيها كل شيء؟؟؟

عندما علم بعض زملائي بخبر مرضي استدعوني إلى بيتهم، أبيت في البداية، لكنني لم أصمد أمام إلحاحهم. قضيت معهم أكثر من أسبوع، لم أكن أقوم بشيء. وكان كل يوم يذهب أحدهم إلى منزلي في الليل قصد المبيت، لأن الأغطية لم تكن كافية.

كان منزلهم في حالة يرثى لها، بل لا يصلح للسكن أساسا، لكن لم يكن أمامهم خيار آخر سوى الإقامة فيه.

طلبت منهم أن ينتقلوا للإقامة معي في منزلي. كانوا أربعة أساتذة، ثلاثة منهم عينوا بنفس الثانوية التي عينت فيها ثم كلفوا بمهمة التدريس بهذه المؤسسة.

انتقلنا إلى الدار في منتصف شهر يناير. بيت واحد لم يكن كاف لإقامة خمسة أساتذة، فأنشأنا بيتا من الحصير. كانت الدار كبيرة جدا ومع ذلك لا تتوفر إلا على بيتين طويلين، لكن صاحبها لم يمنحني إلا بيتا واحدا، بينما الآخر خبأ فيه حاجياته. شكل الدار تقليدي ويتلاءم مع البناء البدوي. يحيط الدار أسوار كبيرة، مباشرة بعد الباب تجد على يمينك المرحاض، أمامها بخمسة أمتار المطبخ، ثم باب يدخلنا إلى بهو شاسع المساحة تتوسطه أعمدة، ثم البيتين. و بين الأعمدة أقمنا بيتنا الجديد الذي سكن فيه اثنين من الأساتذة، بينما الثلاثة الذين كنت منهم سكنا في البيت الآخر.

طبعا لم يكن السكن ملائما لنا، فأذواقنا مختلفة في كل شيء، في الأكل والنوم والعادات، وغيرها. ولكن كان لابد لنا من التعايش.

لم تكن القرية مرتبطة بالشبكة العنكبوتية، ليس هناك مقاهي ولا مطاعم نتوجه إليها عند الضرورة، لذلك لم يكن لنا من حل سوى الطبخ في المنزل

وتوفير كل الضروريات أيام السوق الأسبوعي، أو الأيام التي يستقدم فيها أصحاب محلات المواد الغذائية الخضر والفواكه.

لم أكن راض عن مكان تعييني بتاتا، وكثيرا ما كنت أعبر لصديقي الجديد الذي كان يدعى ياسين عن سخطي وتذمري من هذا الوضع. كنت أحس بالضيق والخنق. اعتدت حيوية الجامعة وحركتها الدائبة، لكن هنا لا شيء غير الهدوء، والهدوء فقط. أحيانا كنت أتساءل مع نفسي ما الذي يجعل هؤلاء الناس يصبرون على هذا الوضع؟ لماذا لا يغادرون هذا المكان؟ ما الذي يصبرهم على البقاء؟

كان معظم الرجال يعملون في المدن الكبيرة كأكادير والدار البيضاء ومراكش والداخلة والعيون وغيرها من المدن، ولا يرجعون إلى الأسرة إلا مرة في السنة. كان معظمهم يفضل مناسبة عيد الأضحى، أو العيد الكبير كما يسمونه المغاربة. كنت أقول مادام الرجال يعملون خارج القرية لماذا لا يأخذون أسرهم معهم؟ كنت أنظر الى الأمر بهذه البساطة، لكنني اكتشفت أن للمكان سر وجاذبية تجعل الانسان متعلق به، ومهما بلغ الإنسان وتحسنت ظروفه الاجتماعية فإنه يظل دائما مشدودا الى المكان الذي نشأ وترعرع فيه. شيء ما يجعلنا مرتبطين بأرض النشأة، ربما للأرض جاذبية معنوية قوية، وربما لأننا خلقنا من الأرض، وربما لأنها تحمل تاريخ فترة زمنية من عمرنا؛ كيفما كانت، سعيدة أو حزينة إلا أن للماضي سحر لا يقاوم.

أسئلة كثيرة كانت تزعج ذهني كثيرا. عندما كان يراني صديقي ياسين على هذا الحال من التذمر والخنق كان يقص لي قصة من قصصه وطرائفه التي تعرض لها في بداية عمله.

ياسين أستاذ التعليم الابتدائي، قبل أن يستقر بهذه المركزية كان قد مر بمدارس فرعية مختلفة وقاسية جدا. أشدها قسوة، ثلاثة سنوات قضايا بفرعية تعليمية بمنطقة قروية، لا يوجد فيها شيء، حتى الضروريات غير موجودة: الكهرباء غير موجودة، والماء يجلبونه من العين، لا يوجد محل للمواد الغذائية، ولا الخضر أو الفواكه. ببساطة كل شيء يجلبونه من السوق الأسبوعي الذي كان يقام يوم الخميس، لذلك عطلتهم الأسبوعية لم تكن يوم الأحد كباقي الموظفين، بل يوم الخميس. سألته عن سبب هذا الوضع الكارثي.

قال: إن معظم السكان هنا رُحل، لذلك المكان غير مربوط بشبكة الماء والكهرباء.

أما السفر فتلك قصة أخرى. مكان السوق يبعد عن فرعيته بأزيد من ستين كيلومترا. والطريق إليه غير معبدة؛ رمال وصحارى، لذلك تحتاج الى نوعية من السيارات.

سألته متى تسافرون وكيف؟

مع الثانية صباحا.

الثانية صباحا! لماذا؟ أليس الوقت مبكرا؟

بلى. ولكن ليس لنا خيار سوى ذلك. فليس هناك سيارات للأجرة، بل هناك سيارات خاصة شبيهة بالنقل المزدوج، لكن ليس لها ترخيص. تنقل المعز والغنم للبيع في السوق فنسافر معها.

هل تسافرون مع المعز والغنم؟

نعم نسافر معها.

ماذا تقول؟

ووقعت لنا معها طرائف كثيرة، مضحكة ومبكية.

طرائف. احك فإنني في حاجة إليها.

ذات سفر خرجنا كعادتنا أنا وزميلي مع الثانية ليلا في ذلك النقل، وقد حمل معنا جديا أقرنا. كان جالسا أمامنا مباشرة. صديقي لم يتركه أثر النوم، لذلك كان يغفو بين الفينة والأخرى، الجدي الأقرن حسب إغفاءة صديقي تحديا له للمبارزة، فرجع للوراء ثم انهال عليه "بنطحة قوية".

ماذا؟ نطحه؟

نعم. نطحة قوية أزالت كل آثار النوم معن صديقي. وهناك طرائف كثيرة لم تسعفني الذاكرة في استحضارها جميعا.

أنتم من تستحقون أن تتحدثوا عن التضحية، وتستحقون أن يبذل من أجلكم الغالي والنفيس، وترفع مكانتكم الاعتبارية إلى الأعالي.

لكن الواقع شيء آخر فالأستاذ لم تعد له تلك المكانة والهالة التي كانت له في السابق.

أعتقد أن الوضع الطبيعي هو أن يكرم الأستاذ من الناحية المادية والمعنوية، فإن صلح واستقام وضعه صلح المجتمع، فهو ثالث الثلاثة الذي تصلح بهم الأمة كما نظر لذلك عالم المستقبليات المهدي المنجرة.

ماذا قال عنا المنجرة؟

إذا أردت إصلاح أمة أو تدميرها فعليك بثلاثة رجال: المعلم، والقدوة، والمرأة. وقد كان محقا؛ فالمرأة هي من تربي الأجيال فإذا أعددتها فقد أعددت جيلا طيب الأخلاق كما قال شاعر النيل

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

الأم روض إن تعهده الحيا بالري أورق أيما إيراق

الأم أستاذ الأساتذة الألي شغلت مآثرهم مدى الآفاق

والأستاذ هو من يعلمهم ويربيهم، وله سلطة اعتبارية يتأثر بها التلميذ كثيرا. والقدوة هو الذي ينصح الناس ويفقهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح. فإن استقام هؤلاء الثلاثة، فالمجتمع سيكون بخير. لكن استقامتهم تبدأ أولا وأخيرا بأجر كريم يجلهم ويرفع مكانتهم. غير ذلك فإننا نكذب عن أنفسنا إن رمنا تغييرا.

4

حاولت أن أنسجم في هذا الوسط فانخرطت في العمل النقابي بعفوية وتلقائية، ساهمت إلى جانب مجموعة من الأساتذة، الذين كانت تحدوهم رغبة العمل وتقديم شيء مفيد للمنظومة التعليمية، في تأسيس فرع نقابي ضمن مركزية نقابية.

معظم الأساتذة الذين كونوا المكتب لم تكن لهم تجربة سابقة في العمل التأطيري، كما أن جلهم في سنتهم الأولى من العمل.

انخرطت في العمل وحاولت أن أقدم شيئا مفيدا، قلت في نفسي لقد راكمت تجربة مهمة في التأطير والتسيير في المرحلة الطلابية، وإنه لمن غير المعقول أن تضيع هذه التجربة التي تعلمت فيها أشياء كثيرة، كنت أحمل آمالا كبيرة، وحماسا مشتعلا. غير أن واقع العمل النقابي خارج أسوار الجامعة مختلف جدا عن العمل الطلابي، اختلاف يفقد العمل مصداقيته وشرعيته.

في الجامعة معظم الطلبة يشاركون بشكل أو آخر في صناعة النضال واتخاذ القرار، ويعاقبون الأطراف العاملة بمقاطعة أنشطتهم النضالية والثقافية، كما أن طبيعة المرحلة العمرية والعمل الطلابي المتميز بالحيوية الدائمة تجعل المنافسة حادة ومستمرة.

أما خارج أسوار الجامعة فالشغيلة غير قادرة على ممارسة الرقابة النقابية، وغير مهتمة بالمجال السياسي إطلاقا. هنا اليأس وخيبة الآمال من الأداء النقابي والسياسي عموما، لذلك فإن أكثر رجال التعليم ونسائه لا يشاركون، ولا يرون في النقابة إطارا يعبر عن همومهم.

هذا هو الواقع الذي اكتشفته بعد انخراطي في العمل النقابي، هناك أزمة ثقة في المركزيات النقابية وعزوف عن الانخراط أو المشاركة في أنشطتها النضالية. وقد وجدت معهم كل الحق، فالأداء النقابي شبه منعدم، والمكاسب في تراجع مستمر، والمركزيات لا تقوم إلا بأشكال يتيمة فقدت قيمتها لرتابتها.

5

عندما نجحت في امتحان التخرج سعدت كثيرا، فقد نلت الوظيفة التي ستحقق لي أحلامي وآمال العائلة. العائلة التي ضحت من أجل أن ترى ابنها في مقام عال، لم تدخر جهدا إلا بذلته من أجلي. وقد آن الأوان لأرد الدين الكبير الذي مهما فعلت فلن أستطيع رده.

كنت أحسب أن الأجر الذي سأحصل عليه سيمكنني من تحقيق أحلامي. لكن الحقيقة شيء آخر. كنت محظوظا لأنني توظفت في السلم العاشر الذي يعادل أجره خمسة آلاف درهم تقريبا. المشكل المادي يبدأ منذ البداية فلا نحصل على الأجرة الأولى إلا بعد أن نكون قد اقترضنا كثيرا منها. لذلك فإن حققت التعادل بين ما حصلت وعليه وما عليك من دين فأنت محظوظ.

لكن أحلامي تبخرت مع واقع الأجر الهزيل جدا وارتفاع المعيشة كثيرا.

كان السفر يكلفني مبلغا يرهقني كثيرا خاصة اذا ذهبت الى منزلنا، فقد كنت أحتاج الى 1500 درهم على الأقل ذهابا وإيابا. كنت أعتبر هذا اجحافا في حقنا. كيف تساوي الدولة بين من يعمل في العاصمة أو في المدن الكبيرة التي يتوفر فيها كل شيء، وبيننا نحن الذين نعمل في مناطق نائية، ربع أجرتنا أو أكثر يذهب في السفر منها وإليها؟ إن هذا ظلم كبير؟؟؟ كنت أضطر الى عدم السفر في العطل القصيرة الى منزلنا لأنني لا أستطيع من

الناحية المادية والبدنية، فتكون العطلة كالحلم المزعج الذي تنتظر أن تتخلص منه. كانت أيام العطلة تمر قاسية خاصة في أيامها الأولى حين تصبح البلدة خاوية الوفاض، وكأنها مهجورة، فلا قط يسير ولا طير يطير.

كانت العائلة تحتاج الى مبلغ قار كل شهر لسد حاجياتها، ومبلغ مالي كبير نسبيا عند المناسبات. لذلك كنت أشعر بالحرج الكبير.

رغم أنني صرت موظفا، إلا أنني عدت لحياة التقشف من جديد، فقد أصبحث مضطرا الى ذلك، وكنت كثيرا ما أفكر في مداخيل أخرى، وفعلا جربت بعض المشاريع الفلاحية الصغيرة لكنني فشلت فيها. وتوصلت حينذاك أن أي مشروع لا يمكن أن يكلل بالنجاح إلا إذا كان صاحب المشروع هو الساهر على تنفيذه، لذلك قررت ألا أدخل في أي شراكة إلا اذا كنت سأشرف عليها. ومادام ذلك لن يتحقق إلا بانتقالي، فقد أغلقت باب المشاريع.

كنت متشوقا لشراء سيارة، لكنني لم أكن قادرا على توفير ثمنها، فلجأت الى طريقة كان يقوم بها الأساتذة والموظفون وغيرهم لتوفير المال، فهي الحل الأمثل، كانت لها مسميات كثيرة (القرعة، دارت...الخ) وتقتضي هذه العملية أن يشترك مجموعة من الأساتذة – طبعا عنصر الثقة مضمون– ويلتزمون على دفع مبلغ شهري يأخذه كل فرد من المجموعة حتى تنقضي السلسلة. أما اذا قررت شراء منزل فتلك قصة أخرى...

6

كان لي صديق تزوج حديثا، قام بالإجراءات الإدارية للإنخراط في التعاضدية العامة للتربية الوطنية، والتغطية الصحية والصناديق الأخرى.

أجرى الكثير من الفحوصات الطبية لزوجته الحامل التي كلفته مبالغ كبيرة نسبيا، ومع ذلك لم يكن يبالي كثيرا، فنشوة الولد أنسته كل شيء، ثم إنه يعلم أنه سيسترجع الكثير منها، لأنه يتوفر على تغطية صحية.

قال، يحكي قصته المؤلمة:

"كنت قد هيأت ملف التغطية الصحية الاجبارية والتكميلية بكل عناية، والتزمت بمنطوق النص من الوثائق. مرت أيام وشهور ولم أتوصل بشيء. اكتشفت أن هناك موقعا إلكترونيا يمكنك من متابعة ملفك، ومعرفة كل جديد، الوضعية الإدارية، والملفات المعالجة...الخ

تمكنت من الدخول الى الموقع بعد معركة المعلومة التي لابد منها في كل تجربة أو عملية ستقوم بها، فاكتشفت أن العديد من الملفات تم تسويتها ماديا، لكنني لم أتوصل بها. بحثت في الموقع جيدا وأعدت المحاولة مرات متكررة، فإذا بي أكتشف أنني مطالب باستكمال أوراق الإنخراط، لأن ملفي تنقصنه الورقة البنكية (شيك) حتى يتم إرسال تعويضاتي مباشرة الى حسابي البنكي.

لم أعقب على هذا الإجراء، لكنني تفاجأت، لماذا لم يدرجوه ضمن الوثائق المطلوب الإدلاء بها؟ على كل حال قمت بالإجراءات اللازمة وتم تسوية الوضعية الادارية، لكن الوضعية المالية بقيت عالقة.

قيل لي أنه علي الذهاب إلى البريد، فكل المنخرطين الذين لا يمتلكون حسابا يتم إرسال حوالاتهم إلى البريد. ذهبت إليه وحملت معي ما يلزم من الوثائق، استفسرت عن الوضعية، فوجدت فعلا مجموعة من الملفات التي بلغت عشرة، لكنها تم ارجاعها لأن صاحبها لم يتسلمها في أجل ستين يوما. هكذا قيل لي. فقلت للموظف:

إنني لم أكن أعلم بوجود الملفات، فلم أتوصل بإشعار أو أي شيء من هذا القبيل.

لست مسؤولا عن ذلك، ربما هناك خطأ في العنوان، أو غيرت عنوانك.

أو لم يرسلوه أصلا !

ممكن، ومن يدري؟

وما العمل إذن؟

عليك أن تقوم بطلب استرجاع التعويضات من التعاضدية الخاصة برجال التعليم

هل هناك من خيار آخر؟

للأسف ليس أمامك إلا هذا.

أرسلت الطلب بعد أن استفسرت عن المعلومات والمعطيات التي ينبغي أن يدلى بها في الطلب، تواصلت مع أحد الموظفين بالتعاضدية الجهوية بأكادير، وكان رجلا طيبا يقضي الحاجات، فأخبرني بضرورة الانتظار. انتظرت الشهر الأول والثاني والثالث ثم سنة ولا جديد.

أحس الموظف الطيب بالحرج فأعطاني رقم موظفة بالتعاضدية العامة بالدار البيضاء، قال: هي من ستجيبك عن مشكلتك. فاتصلت بها مرات كثيرة دون نتيجة.

بعد سنتين من الانتظار لجأت إلى النقابة لعلها تجد حلا لهذه المعظلة الكبيرة. طرحت ملفي على المسؤول الجهوي، وعدني بحله عندما يذهب الى مدينة الدار البيضاء.

اتصل بي مرة وأخبرني عن قيمة المبلغ الذي سأناله بعد إجراءات إدارية روتينية حتى أطمئن. لكن مرت الأيام ولم أحصل على المبلغ.

اتصلت بمسؤول آخر من نفس النقابة فأعطاني رقم هاتف موظف بالتعاضدية العامة بالدار البيضاء حتى أجد سلاسة في حل المشكل، استقبلني ذلك الموظف الشاب استقبالا حارا، ثم استفسر عن وضعيتي في الإدارة، قال: سبب المشكل هو البريد لأنه لم يرجع لنا تفاصيل الملفات التي لم يتسلمها

أصحابها، وقد وعدتني المديرة بحل هذا المشكل قريبا، فهي ذاهبة اليوم إلى مدير البريد قصد إجراء حوار لحل المشكلات العالقة بين التعاضدية والبريد، ومن ضمنها هذه الملفات، فنم قرير العين.

اطمأن قلبي ونمت قرير العين، وانتظرت الأيام لعلها تبوح بتعويضاتي المالية، ولكن لا شيء حدث.

بلغ ابني ثلاث سنوات ولم أتلق التعويضات الطبية.

كنت أحس أنني أسافر عبر المشاكل التي تسببها الإدارة، أغوص في بحر من الهواجس، أسائل، أعاتب، أناقش، أحلل، أستنتج، أستنبط، يجتاحني اليأس أحيانا، واستبشر بالنجاح مرة أخرى. صار الفشل والاحباط حقيقة وواقعا يلازمنا، كبرنا مع الفشل، شربناه حليبا، واكلناه خطبا وواقعا.

النجاح حلم جميل، لأنه صار بعيد المنال، لذلك عندما تحقق ولو مقدار ذرة نجاح تنتعش وكأنك أسد في غابته، أو قائد انتصر في المعركة.

ضمآن والماء لا يروي عطشي، جائع والخبز لا يطعم معدتي. وحده النجاح يروي عطشي ويطعم جوعي، وحده يسقي أفكاري فتخرج من رحم تفكيري غضة طرية منتعشة مستبشرة.

قررت ألا أتنازل عن حقي حتى وإن خسرت ذلك المبلغ كله في الذهاب والإياب إلى الإدارة. لكن هذه المرة تسلحت بهمتي دون وساطة من نقابة أو

قريب. ذهبت الى الدار البيضاء وسألت عن قسم الحسابات المالية. دخلت الى المكتب فاستقبلتني موظفة في عقدها الرابع، أخذت معطياتي، بحثت في الحاسوب، مرة ثم مرات عديدة، ثم قالت:

للأسف أنت ضمن الملفات التي لم يرجع لنا البريد تفاصيلها

وما العمل إذن؟

عليك الذهاب الى الرباط وبالضبط الى الصندوق الوطني لمنظمات الاحتياط الاجتماعي، فهم من يملكون حل وضعيتك.

رجاء ماذا سأقول لهم بالضبط؟

قل لهم أن لي ملفات مجمدة لأن قسم الحسابات في التعاضدية لا يملك تفاصيلا عنها، لذلك لا يستطيع صرفها.

ذهبت مسرعا الى مدينة الرباط، بحث كثيرا عن الصندوق ولم أجده، ثم أخذت أستفسر فردا فردا حتى بلغت الى المكان المعلوم بعد جهد جهيد.

استقبلني موظف كان في عجلة من أمره، يقدم المعلومات بشح كبير وكأنه يؤدي ثمنها. ثم أرسلني مرة أخرى إلى الدار البيضاء.

عدت للمرة الثالثة الى التعاضدية، استقبلتني الموظفة التي تأسفت كثيرا، وأبانت تعاطفها معي، بل هي أيضا تريد حل هذه الملفات لأنها تزيدها عناء.

شرحت لي الوضعية بتفصيل دقيق، وحذرتني من موظفي الرباط فهم غالبا ما يصدرون الزبناء إلى إدارات أخرى حتى يستريحوا من أعبائهم.

عدت مرة ثانية إلى الرباط وأنا عازم على ألا أبارح الإدارة حتى أعرف حقيقة هذه الملفات. سألت مباشرة عن قسم الحسابات المالية، توجهت إلى الطابق الثالث، فوجدت مكاتب كثيرة، ثم دخلت إلى كتابة رئيس المصلحة، فوجدت موظفتين في مقتبل العمر، سألتهما، فلم أجد ما يشفي غليلي.

صعدت إلى الطابق الرابع، ودخلت مكتبا وجدت فيه العديد من الموظفين يتبادلون الأحاديث، استفسرت أحدهم عن وضعيتي، قال: عليك الذهاب الى مدينة الدار البيضاء فكل شيء عندهم، لم تعد لنا علاقة بالملفات التي تتحدث عنها.

لقد جئت الآن من مدينة الدار البيضاء، فقد أرسلتني الموظفة في قسم الحسابات المالية الى مصلحة المالية.

حسنا تعالى معي لنرى حقيقة ما تقول.

نزلنا الى الطابق الثالث، ودخلنا الى مكتبه، أشعل حاسوبه، وأخذ معلوماتي ثم أدخلها في الحاسوب، وبعد مدة قصيرة اكتشف أن الخلل عندهم، ووعدني بحله في مدة قد لا تتجاوز شهرين.

عدت إلى منزلي مرتاح البال ظنا مني أنني ربحت المعركة التاريخية مع الإدارة؟؟؟ وانتظرت مرور الشهرين، ثم تنقلت الى مدينة الرباط للمرة الثالثة، لكن دون جدوى، التقيت رئيس قسم الحسابات فأخبرني أنه أرسل طلبا الى البريد يخبره بالمشكل، فقالوا له، أن هذه الملفات قديمة وتحتاج العودة الى الأرشيف حتى نبحث عنها، لذلك فالأمر يحتاج إلى وقت قد يطول وقد يقصر.

لم أملك في ذلك الوقت إلا الانتظار فعدت الى البيت محطم القلب، أجتر معي معالم الخيبة واليأس والإحباط؟ لماذا يفعلون بنا هذا كله؟ لماذا لا ننعم بحياة كريمةلماذا علينا أن نصارع ونخوض المعارك الطاحنة من أجل أن نحقق مكتسبا هو من تمام حقوقنا؟ فمن يصارع من أجل التعليم والشغل والصحة وحقوقه الخدماتية أنى له أن يفكر في أشياء أخرى؟ أنى له أن يبدع؟

لم أدر ما فعل صديقي الأستاذ مع الادارة، هل استمر في معركته؟ أم انهزم واستيأس؟ أم حقق مطلبه "حقه". لكنه أكد لي أنه ليس الوحيد الذي تعرض لهذا النصب والقتل الممنهج، بل أكدت له الموظفة بالدار البيضاء أن هناك العديد من الملفات المجمدة التي تعادل الملايين.

ماذا لو لم يطالب صديقي بحقوقه؟ وفعل غيره مثله؟ ما مصير تلك الأموال؟ هل ستظل مجمدة؟ وإلى متى؟ ومن سيأخذها إن لم تصرف لأصحابها.

قبل النهاية

اجتمع الثلاثة ذات خريف، اجتمعوا بعد فرقة طويلة، تحدثوا عن أشياء كثيرة، عن العمل والإدارة والأولاد، عن الاقتصاد والطرائف والعجائب، ضحكوا. ثم أخذوا في استرجاع ذكريات الحياة التي مرت بهم، فكل واحد منهم له ذكريات خاصة به، لكنها جميعها تتقاطع عند تجربة الألم والأمل.

قال مصطفى: أعتقد أن ما مر بنا من أحداث ومشاكل، ومعاناة وألم، أحلام وأوهام يصح كتابتها رواية أدبية.

قال عزيز: إنها فكرة جيدة. وماذا سيكون عنوانها يا مصطفى؟

وهل سنجد معاناة في اختيار العنوان، فكل عناوين الشقاء والعناء تصلح لهذا. فمثلا قد نقول عنها: معاناة الشباب، أو الأحلام الضائعة، أو الفرصة الضائعة ، أو اغتصاب الأمل...

قال حميد: أعتقد أنني وجدت عنوانا رائعا، يختصر كل هذه المعاني، عنوان مثير لكنه يعبر عن همومنا ومشاكلنا، آلامنا وأحلامنا.

جيد قل فقد شوقتنا قال مصطفى

نعنونها بحلم تائه.

حلم تائه، آه عن الحلم. إنه عنوان جيد.

لكن عن أي حلم نتحدث؟

نتحدث عن أمل وحلم الشباب الذي ضاع في دهاليز الدراسة، والبحث عن فرص العمل. حلم التغيير الذي كنا نطمح أن نحققه، أمنياتنا وأحلامنا التي تبخرت وانصهرت مع ظروف العيش، ومتطلبات المجتمع، مع الأهل والأبناء.

نتحدث عن أمل الطاقات المتجددة عبر الزمان والمكان والمبددة بسبب العوز والحاجة، والجشع المستمر.

نتحدث عن حبنا لوطن جميل، وحلم في تغييره، في ولادة جديدة،

أمل أسرنا الذين ضحوا بالغالي والنفيس من أجل تعليمنا، فضلونا على كل شيء، كنا أملهم وحلمهم، وهدفهم، الذي من أجله يكدحون، ولتحقيقه يعملون.

حلم الأمة التي تنتظر من أبنائها البررة أن يعيدوا لها مجدها المغتصب، ومكانتها الطبيعية.

هذا هو الحلم الذي نتحدث عنه.